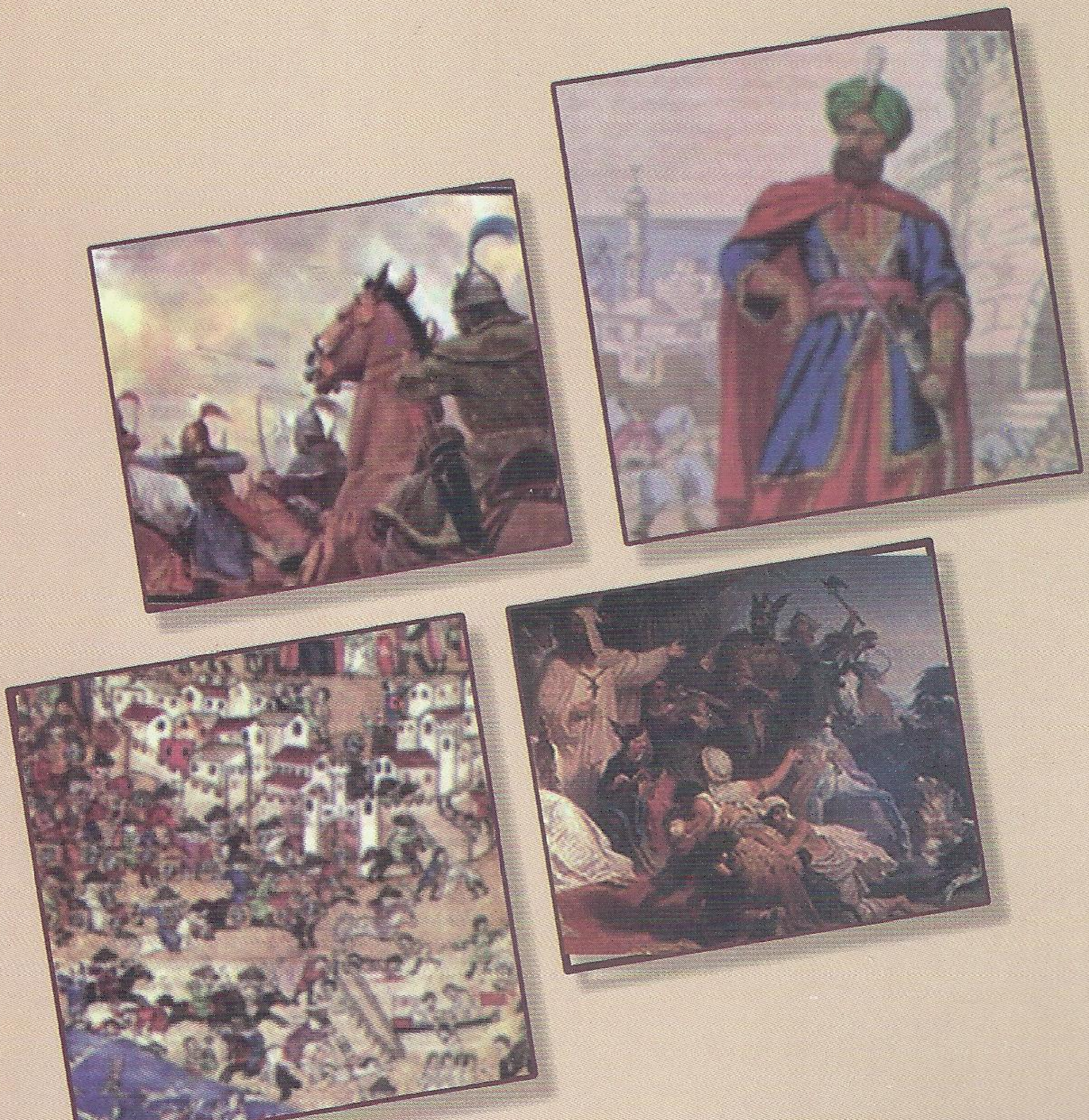
٢٠١٣
بغداد
عاصمة الثقافة العربية

الخليفة المقتفي لأمر الله
ودوره في تحرير بغداد من النفوذ السلجوقي



أ.د. محمد جاسم المشهداني

بغداد عاصمة الثقافة العربية

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الطبعة الاولى سنة ١٩٩٠ - بغداد

هيئة كتابة التاريخ : مشاهير العرب

الخليفة المقتفي لامر الله

٥٣٠ـ٥٥٥هـ / ١١٣٥ ـ ١١٦٠م

تاليف الدكتور
محمد جاسم حمادي المشهداني

الطبعة الاولى سنة ١٩٩٠ ـ بغداد

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة « آفاق عربية »
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص.ب. ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الإهـــداء

الى كل عربي غيور على تربة وطنه وامته .

الى كل عربي شريف دافع عن تربة وطنه وامته .
الى الرجل الذي دافع عن شرف العراق وتاريخه وحضارته.
الى الخليفة المقتفي لامر الله .

اهدي جهدي هذا عرفانا بدوره في التاريخ ، واعترافا بشهامته وغيرته على هذا الوطن والامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة :

ان اختيار موضوع للبحث في كتابة التاريـخ يعد من الامور المهمة التي تعكس جانبا من جوانـب أهمية ذلك الموضوع وجدوى البحث فيه مـن ناحيـة قيمة الموضوع واصالته ، ومدى الاثر الايجابي لتلك الاصالة والقيمة على قارىء التاريخ ، فرغم بعـد الحوادث التاريخية عن زمان ومكان المؤرخ المعاصر ، الا ان لآثارها النفسية والفكرية دورا فاعلا ومؤثرا في بناء وتكوين شخصية القارىء ، اذا ما ادركنا اهمية ومكانة التاريخ في التوعية الوطنية والقومية ، وان الدراسات التاريخية اليوم اضحت في قطرنا هادفـة وليست عشوائية الاختيار ، او كلاسيكية المنهج ، بل هي دراسات منسجمة ومتوافقة مـع ذات المبـادىء والقيم التي صنع في ظلالها التاريخ المشرق للامة عبر الزمن . وانطلاقا من هذا المبدأ ، وانسجاما مع القيمة التاريخية للحوادث التاريخية الفاعلة والمشرقـة في تاريخ الامة العربية وتوافقا مع الدعـوة المخلصة

لاعادة كتابة تاريخ الامة العربية ، فقد وقع اختياري على موضوع «الخليفة المقتفي لامر الله» وذلك لاهمية هذا الموضوع ، الذي يتميز بكونه موضوعا هادفا يعكس حالة ايجابية مشرقة في تاريخ العرب ، لكونه يبين دور الخليفة المقتفي والعراقيين في عملية تحرير العراق من الغزو السلجوقي ، وطرد السلاجقة منه ، واعادة الهيبة الى الخلافة في فترة نضالية مشرقة من تاريخها .

ولقد اقتضت ضرورة البحث تقسيمه الى عدة فصول حيث تناولنا في الفصل الاول ، دراسة الاوضاع العامة للخلافة العباسية قبل عهد الخليفة المقتفي لامر الله بما في ذلك الوضع الاجتماعي والاقتصادي مع دراسة بوادر الانتعاش السياسي ، الذي شهدته الخلافة قبل عهد المقتفي .

ثم بينت في الفصل الثاني دراسة موضوع خلافة المقتفي لامر الله بعد عزل الراشد بالله ثم بيان السيرة الشخصية للخليفة المقتفي لامر الله وموقف المؤرخين من المقتفي عندما اشادوا بذكره وبوقفته التاريخية الشجاعة التي اعادت للخلافة العباسية هيبتها وقوتها .

اما الفصل الثالث فقد اوضحت فيه صعوبة موقف الخليفة المقتفي لامر الله في بداية توليته الخلافة ، وكيف وضع السلاجقة امامه المراقيل

والتعقيدات ما يفوق التصور ولكنه مع كل ذلك استطاع بحنكته وحكمته وشجاعته ان يتجاوز تلك المعوقات ، فضلا عن انه اثبت جدارة وكفاءة كبيرة في تحقيق ما خطط له في مجابهة السلاجقة وتأكيد قوة الخلافة وهيبتها • اما الفصل الرابع ، فكان دراسة لوزراء المقتفي لامر الله حيث اعاد الخليفة الى مؤسسة الوزارة حيويتها ومكانتها السابقة ، بل اعاد الى الوزراء هيبتهم ونفوذهم وكان من ابرز وزرائه ابن هبيرة الدوري الشيباني الذي دعم موقف الخليفة وكان ساعده الايمن في تحقيق قوة الخلافة العباسية • وعالجت في الفصل الخامس ، الازمات الداخلية ودور الخليفة المقتفي في القضاء عليها ، بحيث كانت تلك الازمات متعددة ومتنوعة كالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها حيث انه تمكن من معالجتها وتجاوزها • وخصصت الفصل السادس لموضوع الزيارات التفقدية التي قام بها الخليفة المقتفي لامر الله لمدن العراق ، حيث كان دائم التنقل من مدينة لأخرى يتفقد امورها ، واحوال الرعية فيها فنجده يتردد عدة مرات الى الدجيل للاطلاع بنفسه على مراحل حفر قناة الدجيل لأثرها في الحياة الاقتصادية حينذاك وكان لجولاته وزياراته التفقدية أثر جيد وواضح في التعرف على الاوضاع عن كثب ومعالجتها بجدارة •

كما تطرق الفصل الى مدى عناية الخليفة المقتفي بالحركة الفكرية وتشجيعه للعلماء والمفكرين .

ويعد الفصل السابع اهم فصول الكتاب ، حيث تناولنا فيه تصدي الخليفة المقتفي للسلاجقة ، وانتصاره عليهم ، وتتبعت من خلال الفصل البدايات الاولى للمواجهة والمراحل التي مرت بها حتى طرد السلاجقة عن بغداد والعراق ، ثم الاشارة الى ابرز معارك الخلافة ضدهم ، وبالاخص معركة بكمزا سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ومعركة بغداد التاريخية سنة ٥٥١ / ٥٥٢هـ ، ١١٥٦ ـ ١١٥٧م فضلا عن تحرير عدة مدن عراقية كتكريت ويعقوبة وواسط والحلة وغيرها ، ويعكس الفصل البطولات العراقية الرائعة التي سطرها ابناء العراق وبخاصة بغداد صغارا وكبارا والتي اصبحت شواهد خالدة في سفر التاريخ وأخيرا ارجو ان اكون قد وفقت في كتابة هذا البحث ليسهم في رفد المكتبة العربية ، وليعرف القارىء بالرموز الشاخصة في سفر تاريخنا الخالد .

ومن الله تعالى نستمد العون والتوفيق .

الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني

بغداد المحروسة

في ١٠ ذي الحجة / ١٤٠٩هـ

١٣ـ٧ـ١٩٨٩

الفصل الاول

الوضع العام للخلافة قبل عهـد الخليفة المقتفي

المبحث الاول : الوضع الاجتماعي والاقتصادي •

المبحث الثاني : بوادر الانتعاش السياسي •

تعرض العراق الى مشاكل داخلية متنوعة ومتعددة ، ومخاطر خارجية ، كان من ابرزها الغزو البويهي لمدينة بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وما رافقه من تدهور خطير في الوضع الحضاري والاقتصادي والاجتماعي في العراق عموما ، وفي الوقت الذي ضعفت فيه الدولة البويهية في المشرق رافقه تنامي قوة جديدة ، هي قوة قبائل الغز السلجوقية والذين اندفعوا سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م من سهول تركستان ، واخذوا يتطلعون لغزو العراق ، وتم لهم ذلك في ٢٥ رمضان سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، حيث دخلوا العراق غزاة عن طريق حلوان ، ولقد عاش العراق وضعا صعبا وقاسيا تحت نير الغزو السلجوقي ، ولالقاء ضوء على طبيعة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق في تلك الفترة ، سنتطرق الى ذكر تلك الجوانب ٠

المبحث الاول ـ الوضع الاقتصادي والاجتماعي :

كان الغزو السلجوقي للعراق في سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م بداية مظلمة وقاتمة في تاريخ العراق ،

حيث نتجت عنه مشاكل عديدة داخلية متنوعة واخطارا خارجية رافقتها تدهور كبير في الاوضا الاقتصادية والاجتماعية فضلا عن تدهور الوضع السياسي بصورة خطيرة ، وقد وصف المؤر البنداري حالة اندفاع الغزو السلجوقي باتجا العراق بقوله :

« فهزم على الحركة واندفع كالسيل .. ولم يترك الترك وردا الا شفهوه ، ولا حسنا الا شوهوه ولا نارا الا أرثوها ، ولا دارا الا شعثوها ، و عصمة الا رفعوها ولا وصمة الا وضعوها .. فما جاءوا الى بلدة الا ملكوا مالكها ، وملأوا مسالكها وارعبوا ساكينها ، واسكنوها الرعب ، وغلبوا ولاتها ، وولوها الغلب ، وازروا الى الوزراء واشاعوا مد اليد بالغارة الشعواء» (١) .

ثم سيطر السلاجقة على مرافق الحياة كافة وكانوا يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة في امور الخلفاء والوزراء ، وصار الخلفاء يتسلمون رواتبهم وأرزاقهم من السلاجقة ووضعوا الجيش تحت تصرف واشراف نائبهم المدعو «العميد» ووضعوا الاشراف ع الامن والنظام تحت اشراف «الشحنة» ، حيث فوض لهؤلاء النواب أمر ضبط الامن في العراق ، وارمو

---

(١) البنداري ، محمد بن محمد بن حامد ، تاريخ دولة آل سلجو (بيروت ، ١٩٧٨) ١٠–١١ .

الاموال الى خزانة الحاكم السلجوقي الذي أخذ يشرف على ما يدخل الى بيت المال من الايرادات ، مما ادى الى فقدان الخلافة العباسية لهيبتها (٢) ، ويمكن تصور وضع الخليفة المزري من خلال رسالة ملكشاه السلجوقي الى الخليفة المقتدي بأمر الله حيث جاء فيها : « لابد ان تترك لي بغداد وتنصرف الى اي البلاد شئت ... والتجأ الخليفة الى وزير السلطان ، وطلب منه أن يسأل سلطانه بتأجيل موعد خروجه من بغداد عشرة أيام ليتسنى له الاستعداد للانتقال» (٣) .

ونتيجة للسياسة السيئة والقاسية التي اتبعها السلاجقة في العراق والتي تمثلت في نهب خيرات البلاد ، وفي خلق وتغذية الانقسامات الاجتماعية ، وزرع بذور الفتن الطائفية ، فقد مر العراق بوضع صعب وخطير في تلك المرحلة من تاريخه ، حيث كثرت المنازعات والانقسامات والفتن في العراق بصورة عامة وبغداد بصفة خاصة ، وشهدت الفترة من ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وحتى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ما يقارب من ست عشرة حادثة نزاع طائفي

---

(٢) حسين امين ، تاريخ العراق في العهد السلجوقي (بغداد ، ١٩٦٥) ٤٠ ـ ٧٨ ، د . رشيد الجميلي ، امارة الموصل في العصر السلجوقي (بغداد ، ١٩٨٠) ٤٨ ، ٥٤ .

(٣) البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٥ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ (الهند ، ١٣٥٨) .

وبالاخص في بغداد (٤) ، وما رافق ذلك من عمليات قتل ونهب وسلب وحرائق كثيرة ، وما نتج عن ذلك من تدهور الاوضاع الاقتصادية الى حد لا يطاق ، وقد سجلت لنا كتب التاريخ عشرة حوادث لغلاء الاسعار ، والقحط ما بين سنة ٤٤٨هـ /١٠٥٦م وسنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م(٥) . ورافق ذلك انتشار الاوبئة والامراض في انحاء العراق(٦) .

وبسبب فقدان الامن والنظام ، وبسبب سيطرة الغزاة السلاجقة على مقدرات الحياة في العراق ، فان ذلك ادى الى اهمال المشاريع الزراعية والري ، حيث تعرض العراق الى حوادث فياضانات مدمرة وبالاخص مدينة بغداد (٧) .

---

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٦٣ ، ٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٣٩ـ٢٤٠ ؛ ٢٧٧ ، ٣٠٥ ، ٩/٢٦ ، ٣٨ ، ٧٧ .

(٥) نفســـه ، ٨/١٧٩ ، ٢٧٣ ، ٩/١٤٦ ، ١٠/١٣٤ ، ابن الاثير الكامل ، ١٠/٢٤٩ (بيروت ، ١٩٦٥) حوادث سنوات ، ٤٤٨هـ ، ٤٩٣هـ ، ٥٠٢ ، ٥١٧هـ ، ٥١٨هـ ، ابن كثير ، البداية والنهاية (بيروت ١٩٦٦) ، ١٦٥ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/١٧٠ ، ٢٣٢ ، ٩/١٤ ، ٢٧ ، ١١٣ ، ٢٤٩ ، ١٠/١٣٨ . ابن الاثير ، الكامل ، حوادث سنة ٥٤٥هـ ، ٥٧٤هـ .

(٧) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ٨/٢٢٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠٥ ، ١٠/١٨٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، حـــوادث ســـنة ٤٧٢هـ ، ٥٠٢هـ ، ٥٥٤هـ ، ٥٥٧هـ ، ٥٦٩هـ .

ومما زاد في تعقيد الوضع الاقتصادي في العراق ، تعرضه الى مواسم الجفاف وعدم سقوط الامطار في السنوات ٤٩٣ ، ٥١٢ ، ٥١٨ ، ٥٤٣ هـ(٨) .

ولعل اوضح صورة اوردها المؤرخ البنداري عن وضع العراق وبغداد تحت نير السيطرة السلجوقية من خلال وصفه الآتي عندما قال : « ... وكانت السدة الشريفة قد منيت بجور الاعاجم ... ولم تزل بغداد مظلمة مشحونة منهم بالشحن المظلمة ... والدماء والفروج مستباحة مهدرة ، والخليفة يُقدر عليه ولا يقدر ويُغدر به »(٩) .

المبحث الثاني ـ بوادر الانتعاش السياسي :

عاشت الخلافة العباسية وضعا صعبا عندما ابتليت بجور المتغلبين عليها من البويهيين الفرس ، ومن قبل السلاجقة ، واخذ اليأس مأخذه في نفوس الناس عامة والخلفاء بخاصة ، لكن الارادة القوية لبعض الخلفاء العباسيين مكنت من ايجاد نهاية تامة لنفوذ المتغلبين السلاجقة وطردهم من بغداد ، وتحرير العراق منهم ، وذلك بفضل الجهود العظيمة التي

---

(٨) نفسه ، ٩/١١٣ ، ابن الاثير ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٥١٢هـ ، ٥١٨هـ ، ٥٤٣هـ .

(٩) دولة آل سلجوق ، ٢١٤ .

بذلها الخليفة المقتفي لامر الله (١٠) ، الذي أستطاع ان يعيد للخلافة هيبتها وقوتها •

وكانت بوادر الانتعاش السياسي قد ظهرت في عهد الخلفاء الذين سبقوا المقتفي رغم أن ذلك الانتعاش كان محدداً ، حيث لم يجرؤ الخلفاء الذين سبقوه على مجابهة السلاجقة بصورة علنية الا بقدر محدود ، مما شجع الخلفاء الذين جاءوا فيما بعد على مواجهتهم مباشرة • ولذلك فلم يكن عهد المقتدي بامر الله (١١) ، الا استمرارا للعهود السابقة والتي تميزت بسيطرة السلاجقة المتغلبين على مقدرات الخلافة ، وفرض نفوذهم وسطوتهم على امورها وامور الخلفاء ، واختتم عهد المقتدي باخراجه من

---

(١٠) المقتفي لامر الله : هو ابو عبدالله محمد بن المستظهر بالله بويع له بالخلافة في يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي الحجة سنة ٥٣٠هـ (ابن العمراني ، الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق د • قاسم السامرائي (لايدن ، ١٩٧٣) ، ٢٢٥) •

(١١) المقتدي بأمر الله : هو ابو القاسم ، عبدالله بن ذخيرة الدين بن العباس محمد بن القائم بأمر الله ، توفي في المحرم سنة ٤٨٧هـ ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وشهورا (المصدر السابق ، ٢٠١ ، ٢٠٥) •

بغداد الى اصفهان (١٢) ، بامر ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي عندما طلب منه مغادرة بغداد حالا بعد دخوله اليها ، فتوفي في اصفهان سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م(١٣) • اما الخليفة المستظهر بالله(١٤) ، فانه كان « لين الجانب محبا للخير » (١٥) ، وقد اتخذ قرارا جريئا في عزله للوزير عميد الدولة بن جهير وتخلص منه (١٦) • ويعد عمله هذا سابقة جديدة في عهد تسلط المتغلبين على الخلافة ، ويعتبر نقطة تحول في طبيعة علاقة الخلافة بهم ، اما خليفته المسترشد بالله ٥١٢ـ٥٢٩(١٧) ، فيعد من رجال بني

---

(١٢) اصفهان : مدينة كبيرة ، وهي اسم للاقليم ، وكانت مدينتها اولا جي ، ثم صارت اليهودية ، وهي من نواحي الجبل) ابن عبدالحق البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ج١ (بيروت ، ١٩٥٤) ص٨٧ •

(١٣) ابن العمراني ، المصدر السابق ، ٢٠٥ •

(١٤) هو ابو العباس احمد بن المقتدي بأمر الله ، بويع له في ٤ محرم سنة ٤٨٧هـ ، في اليوم الثالث من وفاة ابيه ، وكان مولده بدار الخلافة سنة ٤٧٠هـ ، وامه تركية ، وتوفي في ربيع الاول سنة ٥١٢هـ بعلة الاستسقاء (ابن العمراني ، المصدر نفسه ، ٢٠٦ ، ٢٠٨) •

(١٥) الذهبي ، دول الاسلام ج٢ (حيدر آباد ، ١٣٣٧هـ) ٥١ •

(١٦) ابن العمراني ، المصدر السابق ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ •

(١٧) وهو ابو المنصور الفضل بن المستظهر بالله ، ولد في يوم الاثنين سابع شعبان سنة ست وثمانين واربع مائة في حياة المقتدي جده ، وبويع له بالخلافة بعد موت المستظهر

العباس الاشداء في هذه الحقبة الحرجة من عمر الخلافة ، فقد كان «فحل بني العباس ونجيبهم وفاضلهم وكاتبهم واشجعهم »(١٨) · وافتتح الخليفة عهده بمجابهة السلاجقة وغيرهم من المتغلبين والطامعين ، فقد جابه التمرد الذي قاده ضده أخوه ابو الحسن في المدائن حيث تمكن ابو مضر العلوي النقيب من مهاجمة مدينة الحلة وتمت مبايعة ابو الحسن خليفة ، ولقب نفسه « المستنجد بالله » غير أن قوات الخلافة تمكنت من القضاء على المتمردين وأسر ابو الحسن الذي نقل الى بغداد (١٩) ، ثم جابه المسترشد بالله التمرد الذي قاده « دبيس بن صدقة » صاحب الحلة عندما استغل وضع الخلافة ، فطالب الخليفة بالاموال ونهب السواد ، واحرق الغلات ، وهدد الخليفة قائلا « والله لأنقضن الدار حجرا

بالله بثلاثة ايام في صبيحة يوم الخميس السادس من ربيع الاول سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، قتله جماعة من الغلاة في يوم الخميس تاسع عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة وذلك في مدينة مراغة ، ووصل الخبر الى بغداد في عشية يوم الجمعة السابع والعشرين من ذي القعدة من السنة ذاتها (ابن العمراني ، المصدر السابق ، ٢١٠ ــ ٢٢١) ·

(١٨) ابن العمراني ، نفسه ، ٢١٠ ·

(١٩) نفسه ، ٢٠٩ ، ٢١١ــ٢١٢ ·
الذهبي ، المصدر السابق ، ٢/٣٩ــ٤٠ ·

حجرا ، وما انا بدون البساسيري » (٢٠) . فجهز الخليفة جيشا كبيرا قوامه اثنا عشر الف فارس وهاجم فيه مدينة الحلة ، وحررها من المتمردين واعاد اليها الامن والاستقرار بعد هرب دبيس بن صدقة عنها(٢١) .

وفي عام ٥٢٦هـ/١١٣١م اتفق دبيس بن صدقة مع زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل على مهاجمة بغداد في اثني عشر الف فارس ، فاستعد الخليفة لاحتمالات الموقف ومجابهة الغزاة « ولم يبق في البلد صغير ولا كبير الا خرج » (٢٢) ، ودارت رحى معركة عنيفة في

---

(٢٠) البساسيري : هو ارسلان بن عبدالله (ت ، ٤٥١هـ) ، وهو قائد تركي الاصل ، كان من مماليك بني بويه ، واعلن تمرده على الخلافة في عهد الخليفة القائم بأمر الله ، وانضم الى البساسيري كل من نور الدولة ابو الاغر دبيس بن علي بن مزيد الاسدي ، وقريش بن بدران صاحب الموصل وديار ربيعة ، واتفقوا على ازالة دولة بني العباس ، واخرج الخليفة من بغداد ، واعلن الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي ، الا ان محاولته فشلت فيما بعد .

(٢١) ابن العمراني ، المصدر السابق ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، الذهبي ، المصدر السابق ، ٤٣/٢ ، ٤٤ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ج٤ (بيروت ، لات) ٥٣ .

(٢٢) ابن العمراني ، المصدر السابق ، ٢١٧ .

منطقة عقرقوف(٢٣) ، وحققت قوات الخلافة بقيادة المسترشد بالله انتصاراً حاسماً على المتمردين(٢٤) .

وبعد هذه الانتصارات فكر الخليفة المسترشد في مواجهة المتغلبين السلاجقة ، ولذلك ابتدأ صراعه مع مسعود السلجوقي فاتجه الى مواجهته في عقر داره ، غير انه هوجم في منطقة مراغة (٢٥) ، من قبل جماعة من غلاة الاسماعيلية بعد أن لجأوا الى استغلال الوضع بطريق المكر والخداع ، ولكنه قاتلهم بشجاعة وهو ينادي : « شهيد والحمد لله » ، وبذلك يكون المسترشد بالله من اوائل خلفاء بني العباس الذين جابهوا السلاجقة مجابهة شجاعة وعلنية ففتح بذلك الباب امام الذين جاءوا من بعده من الخلفاء لتحرير العراق من الغزو السلجوقي ، ثم تولى الخلافة الراشد بالله(٢٧) ، ويبدو أن مسعود السلجوقي لم يكن راغبا

---

(٢٣) عقرقوف : وهي قرية من نواحي نهر عيسى ، بينها وبين بغداد اربعة فراسخ ، وفيها اثار عظيمة من تاريخ العراق القديم (البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ٢/ ٩٥٠) .

(٢٤) ابن العمراني ، المصدر نفسه ، ٢١٧ .

(٢٥) مراغة : بلدة مشهورة باذربيجان ، كانت قصبتها ، وبها آثار ومدارس (انظر : البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ٣/ ١٢٥٠) .

خ

(٢٦) ابن العمراني ، المصدر السابق ، ٢٢١ .

(٢٧) الراشد بالله : هو ابو جعفر المنصور بن المسترشد بالله ، بويع له بالخلافة في يوم الاثنين مستهل ذي الحجة سنة

في خلافة الراشد بالله الذي سيواصل سياسة والده الجهادية ضد السلاجقة ، والسعي لتحريير العراق منهم ويتمثل هذا في قول مسعود السلجوقي « لا اريد أن يجلس في الخلافة الا من لا يداخل نفسه في غيير أمور الدين ولا يجند ، ولا يجمع ، ولا يخرج عليّ ولا على اهل بيتي » (٢٨) غير ان الخليفة الراشد كان عكس ما اراده السلاجقة حيث تمكن من تجهيز حملة كبيرة من بغداد قوامها ثلاثين الف فارس لمهاجمة مسعود السلجوقي وللاخذ بثأر ابيه غير ان مسعود السلجوقي بادره بالهجوم المباغت على بغداد قبل ان يخرج الخليفة لمحاربته وحاصرها قرابة خمسين يوما ، مما اضطر الراشد بالله الى التوجه من بغداد الى الموصل بنصيحة عماد الدين زنكي ، فدخل الغزاة السلاجقة محتلين لها منتصف شهر ذي القعدة سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥م ، ثم تخلى عماد الدين عن الراشد

لتسع وعشرين وخمسمائة ، وقتله الملاحدة في شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، وذلك على باب اصفهان ، ودفن في جامع شهرستان ، وكانت سنه ثلاثين سنة ، وكانت خلافته سنة وثمانية اشهر (ابن العمراني نفسه ، ٢٢٢ ــ ٢٢٤) .

(٢٨) الفارقي ، نبذة من تاريخه (هامش ص٢٥١ ، من ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي) .

الذي خرج عن الموصل الى ان قتل شهيدا من قبل الملاحدة على باب اصفهان (٢٩) ٠

وتم بعد ذلك اختيار المقتفي لامر الله خليفة لبني العباس والذي يعد عهده عهد الحسم الحقيقي للغزو السلجوقي على العراق ، وذلك كما سنرى فيما بعد مستثمرأ ومستفيدا من البدايات الاولى التي جرت في عهد من سبقه من الخلفاء في مجابهتهم للسلاجقة وكان له دورا فاعلا ومميزا ، مع وزيره ابن هبيرة الدوري في تحقيق الانتصار الحاسم على السلاجقة وتحرير العراق من سيطرتهم ٠

---

(٢٩) الحسيني ، الدولة السلجوقية ، ١٠٨ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/٥٩ــ٦٠ ، ابن العمراني ، المصدر السابق ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ٠

الفصـــل الثـــاني

خلافـــة المقتفي لامر الله

المبحث الاول : عزل الراشد بالله وخلافة المقتفي لامر الله ٠

المبحث الثاني : السيرة الشخصية للخليفة المقتفي لامر الله ٠

المبحث الثالث : موقف المؤرخين من الخليفة المقتفي لامر الله ٠

يعد عهد الخليفة المقتفي(١) ، عهدا جديدا في تاريخ العراق بخاصة ، والخلافة العباسية عامة ، وبالاخص في عهد ضعف الخلافة وسيطرة المتغلبين عليها ، لما قام به من دور فاعل ومتميز في القضاء على تلك القوى الاجنبية وتحرير العراق منهم . فبعد فترة عصيبة مرت على العراق تحت نير السيطرة السلجوقية كان فيها السلاجقة هم الذين يعزلون وينصبون الخلفاء ، وفقا لما تقتضيه مصالحهم واهدافهم ، وبعد موقفهم المعادي للخليفة الراشد بالله . والذي كانوا قد اختاروه معتقدين بأنهم سيضعوا مكانه خليفة ينفذ سياستهم ويحقق رغباتهم وسيكون تحت تصرفهم ، ولكن توقعهم كان غير دقيق ، ولا يتفق مع واقع الظروف الجديدة ، ذلك لان المقتفي اراد ان ان يكون خليفة صاحب سلطان حقيقي ، حينما قرر تزعم نضال الخلافة ضد القوى الاجنبية المتغلبة عليها . وكان ساعده الايمن في ذلك وزيره القدير ابو المظفر يحيى بن هبيره الدوري الشيباني(٢) .

---

(١) المقتفي لامر الله : ابو عبدالله محمد بن المستظهر بالله ، احمد بن المقتدى بالله عبدالله بن الامير محمد بن القائم العباسي . (الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ج٤ (بيروت ، لات) ١٧٢ . الذهبي ، دول الاسلام ، ج٢ (القاهرة ، ١٩٧٤) ٧١ .

(٢) هو الحارث بن شريك بن عمرو بن قيس بن شرحبيل بن مرة بن همام بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكاشة بن

لقد كان مصير الخليفة الراشد بالله(٣) محزنا بسبب الموقف المعادي السيىء الذي اتخـــذه ضـــده مسعود السلجوقي، فقد روى ابن الأثير ان مسعود السلجوقي بلغه بأن الخليفة والامراء في بغداد اجمعوا على خلافه والخطبة لداود ابن اخيه محمود (٤) ، فجهز جيشا وسار به الى بغداد فضرب حولها الحصار حيث كان مع الراشد بالله عدد من الامـــراء الســـلاجقـة ، وجيوشهم ، وهم مجمعون على خلافـه ، واضطربت الامور فيها في الوقت الذي استغل فيسه العيارون

صعصب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن اقصى من دعمي بن حديلة بن اسد من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الشيباني الملقب عون الدين (ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ٦/ ٢٣٠) . ولقد اخطأ بن دحية الكلبي في كتابه النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس حينما جعل ابا المظفر من ذرية عمر بن هبيرة الفزاري امير العراقين في عهد الامويين ، فان الوزير شيباني النسب وذاك فزاري النسب ، (ابن خلكان ، ج٦/ ٢٣٠ ومابعدها) ، اما تلقيبه بالدوري فلانه ولد في قرية الدور من اعمال دجيل وينسسبه (القزويني ، اثار البلاد ، ٣٦٧) .

(٣) الراشد بالله : ابو جعفر منصور بن المسترشد بالله احمد ابن المقتدي بالله الهاشمي العباسي (الحنبلي المصـدر السابق ، ٤/ ١٠٠) .

(٤) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١ (بيروت ، ١٩٦٦) ٤٠ـ٤١ .

والشطار (٥) تدهور الموقف السياسي فأكثروا من الفساد والفوضى فيها ، وفي الوقت نفسه قام جند انطاري صاحب واسط بقيادة سفن كثيرة في نهر دجلة لمهاجمة الخليفة الراشد بالله من بغداد (٦) ، في حين حدثت خلافات حادة بين المجتمعين في دار الخلافة كان من نتيجتها خروج الخليفة الراشد بالله من بغداد ، وبرفقة عماد الدين زنكي (٧) ، متجهين نحو مدينة الموصل ، ويبدو ان الخليفة لجأ الى زنكي آملا في اسناد ودعم موقفه ضد السلاجقة في بغداد ، حيث كان زنكي على خلاف مع مسعود السلجوقي قال اسطيفانوس الدويهي : « خرج زنكي وهو ناقم على السلطان السلجوقي » (٨) ، وكان ذلك في عام ٥٣٨ ، وبعد خروج الخليفة الراشد مع زنكي تمكن مسعود السلجوقي من احتلال بغداد ودخول قصر الخلافة ، ولقد استغل مسعود السلجوقي الوضع فاحضر العلماء

---

(٥) العيارون والشطار : فئة من الناس اعتادوا حياة النهب والسلب والتمرد على واقع المجتمع وحركاتهم اجتماعية سياسية .

(٦) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٤١/١١ .

(٧) عماد الدين زنكي : هو ابو الجود عماد الدين زنكي الملقب بالملك المنصور صاحب الموصل وكان من الامراء المقدمين وتوفي سنة ٥٤١هـ ، ودفن بصفين (ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، م٢/٣٢٧-٣٢٩) .

(٨) استيفانوس الدويهي ، تاريخ الازمنة ، بيروت ، ١٩٥١) ٤٨

والاعيان وطلب اليهم خلع الراشد بالله ، حيث زور كتابا بخط الراشد بالله افتراءاً عليه وجاء فيه :

« أني متى جندت او خرجت انعزلت » ، وبالغ في الحط من الخليفة الوزير علي بن طراد « حيث بالغ بأعباء القضية واجتمع بالقضاة والمفتين وخوّفهم وارهبهم ان لم يخلعوا الراشد » وكتب محضراً فيه : « ان ابا جعفر بن المسترشد بدا منه سوء أفعال وسفك دماء ، وفعل ما لايجوز ان يكون معه اماما وأشهد بذلك جماعة » (٩) ، وذكر ابن الاثير أن مسعوداً لما جمع القضاة والشهود والفقهاء عرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد بالله لمسعود بخط يده « اني متى جندت او خرجت او لقيت احدا من اصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر» (١٠) • في حين يذكر ابن خلدون انهم ذكروا ما ارتكبه الخليفة من أخذ الاموال ومن الافعال الفادحة في الامامة وختموا آخر المحضر بان من هذه صفته لا يصلح ان يكون اماما (١١) • ويرى ابن دحية الكلبي (ت ، ٦٣٣) وابن العماد الحنبلي

---

(٩) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج٤ (الكويت ، ١٩٦٣) ٨٠-٨١ ، دول الاسلام ، ٥١/٢ •

(١٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٦٠/١٠ ، ابن العبري ، مختصر الدول ، ٣٥٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٢٤٢/١١ •

(١١) العبر ، م٣ (بيروت ، ١٩٥٧) ١٠٥٧ •

(ت ، ١٠٨٩) ، بأن ما اورده مسعود السلجوقي والوزير الزيني في المحضر المتخذ ضد الراشد بالله ، واتهامه بالظلم وأخذ الاموال بدون حق ، كل ذلك افتراء على الخليفة ، وبعيد كل البعد عن الحقيقة (١٢) ، ويؤكد الدكتور محمد الزهراني ، بانه يبدو واضحا كل الوضوح ان الخط الذي نسبه مسعود السلجوقي الى الراشد بالله كان مزوراً ، وعبارة عن ذريعة يتذرع بها لخلعه لان مسعود السلجوقي لم يلتق بالراشد بالله بعد مقتل المسترشد بالله ، ولم يكن لمسعود السلجوقي ولا لبقية الامراء السلاجقة يد في تنصيبه خليفة ، ولم يذكر احد من المؤرخين انه كانت هناك مراسلات بين الراشد ومسعود السلجوقي ، هذا فضلا عن انه لو كان ذلك الخط قد كتبه الراشد بالله حقيقة ، لما كان هناك داع للضغط على القضاة والفقهاء وتلفيق التهم لخلعه ، اما فيما يتعلق بموقف الوزير ابن طراد الزيني ومن وقف الى جانبه من كبار الموظفين فلا يخرج عن افتراضين اولهما ، انهم تعرضوا لضغط شديد من السلطان السلجوقي اثناء وقوعهم في أسره ، فاكرهوا على مسايرته وتنفيذ رغباته (١٣) ، اما الافتراض

---

(١٢) النبراس (بغداد ، ١٩٤٦) ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٠١ .

(١٣) د . محمد بن جعفر الزهراني ، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية (بيروت ، ١٩٨٢) ٣٤١ .

الثاني فهو ان الوزير الزيني كان صهرا للامير العباسي المرشح للخلافة وهو محمد بن المستظهر بالله ، وهو المقتفي بامر الله فكان من الطبيعي ان يقف ضد الراشد بالله آملا في ان يعاد الى منصب الوزارة فضلا عما قد يصل اليه من نفوذ في الخلافة على يد صهره (١٤) ٠

ولذا تقرر بشكل نهائي عزل الخليفة الراشد وتولية المقتفي وكما مر بنا فان الراشد بالله كان مع زنكي في الموصل ، ولذا فقد اصبح للخلافة العباسية خليفتان،احدهما ببغداد والآخر بالموصل ، وهذا يماثل ما حدث في فترة التسع سنوات (٥٤٧ ـ ٥٥٦هـ) حيث كان المعتز خليفة بسامراء والمنتصر ببغداد (١٥) ٠ وكان على الخليفة الجديد ان يتخلص اولا من مشكلة الراشد ومن يسانده من القوى الاخرى فضلا عن مسعود السلجوقي الذي استولى على جميع ما في دار الخلافة ولم يبق منها شيئاً سوى اربعة افراس وثمانية بغال للماء » وقيل انهم بايعوه على ان لا يكون عنده خيل ولا آلة

---

(١٤) الفارقي ، نبذه من تاريخه (هامش صفحة ٢٥١ من كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (الذهبي ، دول الاسلام ، ٥٢/٢ ٠

(١٥) راجع د ٠ فاروق عمر ، الخلافة العباسية فترة الفوضى العسكرية ٠

سفر » (١٦) . ولقد بعث الخليفة السابق الراشد وزنكي برسل الى المقتفي برئاسة كمال الدين محمد ابن عبدالله الشهرزوري (١٧) ، وحاول المقتفي ان يكسب زنكي الى جانبه حيث زاد من اقطاعه والقابه مما ادى بزنكي الى ان يخطب للمقتفي في الموصل في رجب سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م مما اضطر الراشد بالله ان يتركها على اثر تخلي زنكي عنه (١٨) ، ويذكر الذهبي ان زنكي دفع الراشد عن الموصل وبقي حائراً وجام الى مراغه (١٩) ، واتجه الى همدان والى خوزستان ، ومعه داود بن محمد السلجوقي ومعهما خوارزمشاه فاتجها نحو الحويزة ، اما مسعود السلجوقي فقد اتجه الى بغداد في حين بدأ انصار الراشد بالتفرق عنه حتى بقي وحده حيث اتجه الى اصفهان ثم اغتيل فيها (٢٠) ، وبذلك اتضحت الامور واصبح محمد بن المستظهر بالله خليفة ولقب بالمقتفي لامر الله وذلك في ١٨/ذي الحجة ، عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، وصار الخليفة الشرعي بنظر الرعية حيث

---

(١٦) الذهبي ، العبر ، ٨١/٤ ، دول الاسلام ، ٥٢/٢ .

(١٧) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٤٤/١١ .

(١٨) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج٣ (القاهرة / ١٣٢٥) ص١١ .

(١٩) مراغة : ويوجد فيها قبر ابيه حيث بكى عنده وحث على رأسه التراب ، راجع الذهبي ، المصدر السابق ، ٨٤/٤ ، دول الاسلام ، ٥٢/٢ـ٥٣ ، ابن الجوزي ، ١٠ـ٦٧ .

(٢٠) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ٨٤/٤ ، ابن الجوزي، المنتظم ، ٦٧/١٠ .

تم في سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م تقليده البـردة النبوية الشريفة والقضيب ، وكانا قد اخذا من المسترشـد حيث بعث بهما سنجر السلجوقي مع رسل له (٢١) .

المبحث الثاني : السيرة الشخصية للخليفة المقتفي لأمر الله :

اسمه ونسبه :

هو ابو عبدالله محمد بن احمد المستظهر بـن عبدالله المقتدي بأمر الله بن الأمير ذخيرة الدين محمد بن القائم بن احمد القادر بن الامير اسحق بن جعفـر المقتدر بن المعتضد بن الامير طلحة بن جعفر المتوكل ابن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن عبدالله المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس الهاشمي (٢٢) .

تلقيبه بالمقتفي لأمر الله :

روي انه رأى في منامه قبل ان يستخلف بستة ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له: «سيصل

(٢١) ابن الاثير ، الكامل ، ٧٩/١١ .

(٢٢) ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، تح د . مصطفى جواد (بغداد ، ١٩٧٠) ٢٢٨ الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، تح شعيب الارنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، ج٢ (بيروت ١٩٨٥) ٣٩٩ .

(٢٣) الذهبي ، المصدر السابق ، ٤٠١/٢٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ (القاهرة ، ١٣٥٨هـ) ٢١٠ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء (بيروت ، ١٩٥٢) ٤٣٧ .

هذا الامر اليك ، فأقتف بي ، فلذا لقب بالمقتفي بالله »(٢٣) .

ولادته :

ولد المقتفي في شهر ربيع الاول سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م وامه يقال لها نزهة ، وتدعى ست السادة ، وكانت موصوفة بالكرم والافضال » (٢٤) .

ابناؤه :

ولد للمقتفي عدة ابناء منهم ابو احمد ، وكان موصوفا بالعقل والصلاح مع فضل وادب ، وابو جعفر عبدالله ، وعيسى ، وابو المظفر يوسف (٢٥) .

اخوته :

كان للمقتفي من الاخوة ، المسترشد ، والامير ابو القاسم ، وابو الحسن عبدالله والامير ابو طالب العباس(٢٦) .

اشتغاله بالعلم والادب :

كان مواضبا على نسخ كتب العلوم قبل خلافته، وقد سمع الحديث من مؤدبه أبي البركات احمد بن

---

(٢٤) ابن الكازروني ، المصدر السابق ، ٢٨٨ .
(٢٥) ابن الكازروني ، المصدر السابق ، ٢٣١ .
(٢٦) نفسه ، ٢٢٨ .

عبدالوهاب ابن السيبي ، وحدث عنه ، وسمع منـه الحديث الوزير ابو المظفر يحيى بن هبيرة وروى عنه (٢٧) ٠

مبايعته بالخلافة :

لما حكم القضاة بخلع الراشد ، بويع عمه المقتفي لامر الله في ١٨ ذي القعدة سنة ٥٣٠هـ ، فحضر بيعته اقاربه وخواصه والولاة والقضاة والفقهـاء والمدول وارباب الدولة والنـاس على طبقاتهـم ، وتولى اخذ البيعة له على الناس الوزير ابو القاسم على بن طراد حتى تم له الامر ، وخطب له بالخلافة يوم الجمعة ٢٠/ذي القعدة / بجميع جوامع مدينة السلام ، وكان عمره لما بويع له ٤١ سـنة ، و(٨) أشهر (٢٨) ٠

صفته ونقش خاتمه :

كان تام الطول ، عبل الجسم في مقدم لحيتـه طول وقد خطه الشيب ، وكان نقش خاتمه « كن من الله على حذر تسلم » (٢٩) ٠

---

(٢٧) نفسه ، ٢٢٨ ٠
(٢٨) ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، ٢٨٨ ٠
(٢٩) نفسه ، ٢٢٨ ٠

وفاته :

توفي المقتفي ليلة الاحد ١٢/شهر ربيع الاول/سنة ٥٥٥هـ عن عمر يناهز ٦٦ سنة الا اياما كانت خلافته (٢٤) سنة و(٣) شهور و (١٤) يوما ، وصلي عليه يوم الاحد ، ودفن بدار الخلافة ، ثم نقل الى قرب الرصافة في ليلة الاربعاء ١٢/شهر ربيع الاول سنة ٥٥٦هـ ، وكان جعل ولده الامير ابا المظفر يوسف ولي عهده وكتب بذلك الى جميع البلاد(٣٠) .

المبحث الثالث : موقف المؤرخين من الخليفة المقتفي لامر الله :

كان المقتفي لامر الله قد جعل لنفسه مكانا بارزا في سفر التاريخ ، حيث استحق تلك المكانة من خلال الانجازات الكبيرة التي اقترنت باسمه ، ومن خلال تخليد المؤرخين الكبار لذلك الدور القيادي للمقتفي في تاريخ العرب ، ولكي نلقي ضوءاً على تلك المكانة التاريخية نود أن نبين آراء المؤرخين فيه .

لقد اشاد المؤرخون بمكانة وشخصية الخليفة المقتفي لامر الله ، فلقد قال عنه ابو طالب عبد الرحمن بن محمد بن عبدالسميع الهاشمي في كتابه المناقب العباسية :

---

(٣٠) نفسه ، ٢٣٠ .

« كانت ايام المقتفي نضرة بالعدل ، زاهرة بفعل الخيرات ، وكان على قدم من العبادة قبل افضاء الامر اليه ، وكان في اول امره متشاغلا بالدين ونسخ العلوم وقراءة القرآن ولم يس مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة في شهامته ، وصرامته ، وشجاعته مع ما خص به من زهده وورعه وعبادته ولم تزل جيوشه منصورة حيث يممت »(٣١) ، وقال عنه ابن الجوزي (ت ، ٥٩٧) : « من ايام المقتفي عادت بغداد والعراق الى يد الخلفاء ، ولم يبق لها منازع ، وقيل ذلك من دولة المقتدر الى وقته كان الحكم للمتغلبين من الملوك وليس للخليفة معهم الا اسم الخلافة ٠٠ وكان شجاعا جوادا كريما محبا للحديث وسماعه معتنيا بالعلم مكرما لاهله » (٣٢) ، وقال ايضا : « وكان صاحب سياسة جدد معالم الامامة ، ومهد رسوم الخلافة وباشر الامور بنفسه ، وغزا غير مرة وامتدت ايامه » (٣٣) ٠ وقال عنه البنداري :

« وملك الخليفة العراق من اقصى الكوفة الى

---

(٣١) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ٢٠/٤٠٠-٤٠١ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٤٤١ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، ٤/١٧٣ ٠

(٣٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٤٤١ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٤/١٧٣ ٠

(٣٣) ابن العماد ، المصدر السابق ، ٤/١٧٣ ٠

حلوان ، ومن ناحية تكريت الى عبادان ، واقطع واسط واعمالها والبصرة وانهارها ومعاقلها ، وولاياتها ، والحلة والكوفة ونهر الملك ، ونهر عيسى والدجيل والراذان وطريق خراسان الى نواحي حلوان واقطع الوزير عون الدين ابن هبيرة جميع ما كان لوزير السلطان ، وارباب مناصبه في جميع هذه البلاد واعانه على الاستعداد واضعاف الاعداء »(٣٤) ٠

« وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوي الرأى والعقل الكثير ، وهو اول من استبد بالعراق متفرداً عن سلطان يكون معه من أول ايام الديلم الى الآن واول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره واصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الآن ، الا أن يكون المعتضد ، وكان شجاعا مقداما مباشراً للحروب بنفسه ، وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد حتى كان لايفوته منها شيء»(٣٥) ، وقال عنه ابن الكازروني : « وكانت ايامه بالعدل نضرة زاهرة وكثرت العلوم في ايامه ورغب الناس الى الاشتغال بالعلم وكان قبل الخلافة على قدم من العبادة واستمر على ذلك بعدها ، وكان

---

(٣٤) تاريخ آل سلجوق ٢١٥ ٠

(٣٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ٢٥٦/١١ ٠

اول امره متخشيا مواضبا على نسخ كتب العلوم ولم ير في سماحته ولين جانبه ووطأة اكنافه وسعة رأفته وكثرة مبراته بعد الامام المعتصم بالله ، خليفة في شهامته وصرامته وحلمه وشجاعته وزهده وعفته ، وخرج عليه في ايامه من سلاطين الوقت جماعة فلّ الله جموعهم »(٣٦) ٠

وقال عنه ايضا : « ٠٠٠ ولم يزل منصورا مؤيدا وكان حليما قل من استقاله عثرة الا أقاله أو سأله الا اجاب سؤاله ، وكان مع اهتمامه بمصالح ملكه يتعدى لاسماع الاخبار حتى تنقل عنه الآثار»(٣٧) ٠ واشاد به المؤرخ الكبير الامام الذهبي (ت ، ٧٤٨هـ) عندما قال عنه : « كان المقتفي عاقلا لبيبا ، عاملا مهيبا ، صارما ، جوادا ، محبا للحديث والعلم ، مكرما لاهله ، وكان حميد السيرة ، يرجع الى تدين وحسن سياسة ، جدد معالم الخلافة ، وباشر المهمات بنفسه ، وغزا في جيوشه »(٣٨) ، « كان لا يجري في دولته شيء الا بتوقيعه ٠٠ اقام حشمة الخلافة ، وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم»(٣٩)

---

(٣٦) مختصر التاريخ ، تح د ٠ مصطفى جواد (بغداد ، ١٩٧٠) ٢٢٨ـ٢٢٩ ٠

(٣٧) نفسه ، ٢٣٠ ٠

(٣٨) سير اعلام النبلاء ، ٢٠/٤٠٠ ٠

(٣٩) نفسه ، ٢٠/٤٠١ ٠

وقال الذهبي أيضا « كان المقتفي من سروات الخلفاء عالما ، اديبا ، شجاعا ، حليما ، دمث الاخلاق ، كامل السؤدد ، خليقا للامامة ، قليل المثل في الائمــــة ، لايجري في دولته امر وان صغر الا بتوقيعه »(٤٠) ٠ وقال عنه ابن الوردي (ت ، ٧٤٩هـ) : « اقــــام حشمة الدولة العباســـية وقطــع عنهـــا طمــــع السلاطين » (٤١) ٠

وقال عنه ابن كثير (ت ، ٧٧٤هـ) : « وكان شهما شجاعا مقداما ، يباشر الحــــروب بنفســــه ، ويشاهد الحروب ، ويبذل الاموال الكثيرة لاصحاب الاخبار ، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عـــن السلطان ، من اول ايام الديلم الى ايامه ، وتمكن من الخلافة وحكم على العسكر والامراء » (٤٢) ، وقال عنه ابن دقماق (ت ، ٨٠٩هـ) : « وكان المقتفي موفق الأمراء والاصحاب ٠٠» وقال : « و٠٠٠ صفت الدنيا للمقتفي » (٤٣) ٠ وقـــال عنـــه القلقشـــندي (ت ، ٨٢٠هـ) : « كان حسن السيرة » (٤٤) ٠ وقال ابـــو

---

(٤٠) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٤٤٠ ٠

(٤١) تاريخ ابن الوردي ، ج٢ (النجــف ، ١٩٦٩) ٨٩ ٠

(٤٢) البداية والنهاية ، ١٢/ ٢٤١ ٠

(٤٣) ابن دقماق ، الجوهر الثمين في سير الخلفـاء والملـوك والسلاطين ، تح د ٠ سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة ، ١٩٨٢) ١٦٨ ٠

(٤٤) مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ج٢ (بيروت ، لات) ٣٦ ٠

الفداء : « وهو أول من استبد بالعراق منفرداً »(٤٥)؛ وقال السيوطي (ت ، ٩١١هـ) ، معانقا على دور المقتفي في الحد من نفوذ السلاجقة بقوله : « ... فسبحان مذل الجبابرة ، وتمكن الخليفة المقتفي ، وزادت حرمته ، وعلت كلمته ، وكان ذلك بعد اصلاح الدولة العباسية ، فلله الحمد » (٤٦) . واضاف قائلا عنه : « وكان محمود السيرة ، مشكور الدولة ، يرجع الى دين وعقل وفضل ورأي وسياسة ، جدد معالم الامامة ، ومهد رسوم الخلافة وباشر الامور بنفسه ، وغزا غير مرة ، وامتدت ايامه »(٤٧) ، وقال عنه الدياربكري (ت ، ٩٨٢هـ) : « كان اماما عالما فاضلا اديبا شجاعا كامل السؤدد ، خليقا للخلافة قليل المثل »(٤٨) ، وقال ابن العماد الحنبلي (ت ، ١٠٨٩هـ) : « كان عالما فاضلا دينا حليما شجاعا مهيبا خليقا للامارة كامل السؤدد ، كان لا يجري في دولته أمر وان صغر الا بتوقيعه » (٤٩) ، وقال عنه المكي : « وكان محمود السيرة مرضي السياسة يتصف بفضل ودين وعقل ورأي وسياسة ، جدد معالم الامامة ومهد رسوم الخلافة ولم ير مع سماحته ولين

---

(٤٥) المختصر في اخبار البشر ، ج٣ (القاهرة ، ١٣٢٥هـ) ٣٧ .
(٤٦) تاريخ الخلفاء ، ٤٣٨ .
(٤٧) نفسه ، ٤٤١ .
(٤٨) تاريخ الخميس ، ج٢ (القاهرة ، ١٢٨٣هـ) ٤٥ .
(٤٩) شذرات الذهب ، ٤/١٧٢ .

جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة مثله من شهامته وصرامته » (٥٠) ، واشاد به نظمي زاده بقوله : « ولم تعد للخلافة العباسية تلك الهيبة والعظمة الا في زمن المقتفي الذي مد في عمرها ، واعاد اليها هيبتها امام الاجانب وغيرهم » (٥١) ، واكد الاستاذ علي ابراهيم حسن ، بان المقتفي لامر الله كان على جانب كبير من الشجاعة والشهامة » (٥٢) ، ولذلك نجد ان المؤرخين قد اشادوا بذكره ، وان ذلك خير دليل وشاهد على قوة شخصيته ومقدرته على تحمل اعباء المسؤولية النضالية للخلافة العباسية ضد القوى الاجنبية الدخيلة المتغلبة والطامعة في العراق ، وفي الخلافة عامة ٠

---

(٥٠) سمط النجوم العوالي ، ٣/٣٧٣ ٠

(٥١) كلشن خلفا ، (النجف ، ١٩٧١) ١١٧ ٠

(٥٢) التاريخ الاسلامي العام (القاهرة ، ١٩٥٩) ٤٥٧ ٠

الفصل الثالث

صعوبة موقف الخليفة المقتفي لامــر الله

في بداية توليه الخلافة

يعد نفوذ السلاجقة من ابرز الاخطار المحدقة بالخلافة العباسية منذ بداية احتلالهم لبغداد في ٢٥ رمضان سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وتفاقم هذا الخطر على مر الايام ، وحرص الحكام السلاجقة منذ البداية على تجريد الخليفة من كل ما يمتلك من اسباب القوة والنفوذ لكي يكون تحت تصرفهم ، لقد اساء السلاجقة معاملة الخليفة المقتفي منذ البداية ، رغم سيطرتهم على كافة الامور ، على الخلافة عامة ، وبغداد بخاصة ، ويمكن ان ندرك حقيقة موقف الخليفة وصعوبته من خلال وصف الوضع الآتي للعراق وبغداد والخلافة : « ... وكانت السدة الشريفة الامامية قد منيت بجور الاعاجم ، ولم يزل عودها من عداوتهم تحت سن الاعاجم وكان اهون ما عندهم خلاف الخليفة وعناده ، وتمردهم عليه بان يحصل مرادهم لا مراده ، ولم تزل بغداد مظلمة مشحونة منهم بالشحن المظلمة ، ولهم من الديوان العزيز مطالب لا يفي بها خواصه .. والحرم من جناياتهم خائف .. والشرف لمهابتهم عائق .. والدماء والفروج مستباحة مهدورة ، والخليفة يقضي ويغضب ، ويعتب ولا يعتب ويقدر عليه ولا

يقدر ، ويغدر به .. »(١) . ولقد اساء مسعود السلجوقي منذ البداية معاملة الخليفة المقتفي لامر الله ، وتجاوز معه حدود الادب واللياقة ، واستولى على جميع ما في دار الخلافة بين خيل وبغال وآثاث هذا فضلا عن الاموال ، ولم يترك للخليفة سوى اربعة خيول وثمانية بغال ، وقيل ثلاثة برسم الماء (٢) .

وذكر ابن الجوزي (ت ، ٥٧٩هـ) ، والذهبي (ت ، ٧٤٨هـ) ، ان مسعود السلجوقي بايع المقتفي لامر الله بالخلافة شرط ان لا يكون عنده خيل ولا عدة سفر ، واستخلفه على ان لايشتري طيلة خلافته مملوكا تركيا ولهذا كان جميع غلمانه اما من الارمن او من الروم (٣) ، وذكر السيوطي (ت ، ٩١١هـ) ، ان مسعوداً السلجوقي ، جعل دخل الخليفة قاصرا فقط على العقار الخاص (٤) .

ويمكن ادراك سوء معاملة مسعود السلجوقي للخليفة المقتفي لامر الله ، وجرأة المقتفي ، وما قاله

---

(١) البنداري ، تاريخ دولة ال سلجوق ، القاهرة، ١٩٠٠) ٢١٤ .
(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/٦٠-٦١ ، الذهبي ، العبر ، ٤/٨١ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٧٥ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٤/١٧٣ .
(٣) المنتظم ، ١٠/٦١ ، دول الاسلام ، ٢/٩٢ ، العبر ، ٤/٨١
(٤) تاريخ الخلفاء ، ١٧٥ .

لمسعود السلجوقي الذي ألح عليه في طلب المزيد من المال وذلك من خلال نص قول المقتفي لمسعود السلجوقي : « ما رأينا اعجب من امرك انت تعلم ان المسترشد بالله سار اليك باموواله فجرى ما جرى ، وعاد اصحابه ، عراة ، وولي الراشد ففعل ما فعل ورحل واخذ ما بقي من الاموال ، ولم يبق في الدار سوى الاثاث فأخذته جميعا ، وتصرفت في دار الضرب ، ودار الذهب ، واخذت التركات والجوالي ، فمن اي وجه نقيم لك هذا المال ؟ وما بقي الا ان نخرج من الدار ونسلمها لك ، فاني عاهدت الله تعالى ان لا آخذ من مال المسلمين حبة واحدة ظلما »(٥) ، ولعلنا يمكن ان ندرك حقيقة موقف الخليفة المقتفي من خلال النص الاتي الذي اورده ابن طباطبا (ت ، ٧٠٩هـ) عندما قال : « وكان الخليفة المقتفي من افاضل الخلفاء ، ولما اجلسه مسعود وبايع له ، وكان قد أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وآثاث ورحل وغير ذلك ، وتصرف نوابه في جميع العراق وارسل الى المقتفي يقول له : اذكر ما تحتاج اليه انت وكل ما يتعلق بك حتى اعين لك به اقطاعات ، فارسل اليه المقتفي يقول له : « عندنا بالدار ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة ليشربه عيالنا ، فانظر انت كم يحتاج اليه من شرب في كل يوم ماءأ يحمله ثمانون بغلا ،

---

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/٦٦ .

فقال مسعود : لقد اجلسنا في الخلافة رجلا عظيما فالله تعالى يكفينا شره » (٦) .

كما كان الخليفة يواجه مضايقات من نائب واتباع مسعود السلجوقي ، حيث كان اصحاب مسعود يتصرفون ببغداد تصرفات سيئة مخالفة لكل القيم والاعراف ، وكان الخليفة يكتب بذلك شاكيا الى مسعود السلجوقي من تصرفات نائبه ولكن بدون جدوى(٧) .

هكذا كانت طبيعة العلاقة بين المقتفي والسلاجقة ، ويمكننا ادراك صعوبة قراره في مواجهة السلاجقة ، غير انه كان ذكيا التزم جانب الصبر والحكمة ، ولم يتعجل الثورة عليهم ، حيث انه استفاد من تجارب سلفه المسترشد بالله والراشد بالله ، والتزم جانب الحكمة والتخطيط الشجاع والمدروس لمواجهة الموقف .

---

(٦) الفخري في الاداب السلطانية ، ٣١٠ .
(٧) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ١٢٩ .

الفصـــل الرابـــع

وزراء الخليفة المقتفي لأمر الله

اهتم الخليفة المقتفي لأمر الله اهتماما كبيرا في امر اختيار الوزراء ، حيث اعاد بطموحه وجرأته لمؤسسة الوزارة قيمتها واهميتها كمؤسسة ادارية مهمة تؤدي خدماتها الجليلة للخلافة ، وعادت الوزارة في عهده الى ممارسة دورها القيادي ، ولذلك اهتم الخليفة المقتفي بأمر اختيار الوزراء ، حيث لعب وزراؤه دوراً مهما في دعم واسناد سياسة الخليفة ، وبالاخص دور وزيره ابن هبيرة الدوري الشيباني الذي كان الساعد الايمن للخليفة ، وسنتطرق الى دوره القيادي في دعم واسناد سياسة الخليفة في تحرير العراق من السيطرة السلجوقية ، وكان اول وزراء المقتفي علي بن طراد الزيني الذي تولى أخذ البيعة له على الناس ، ثم عزله بعد سنتين واستوزر ابا نصر علي بن محمد بن جهير ، وعزله فوزر له بعدها علي بن صدقة الذي عزله ايضا واستقر رأيه أخيراً على اتخاذ أبي المظفر يحيى بن هبيرة وزيرا وظل معه حتى وفاة الخليفة (١) ، وكان وزيرا ذا رأي وعلم ودين وثبات في الامور (٢) ، ويعلق ابن دحية الكلبي (ت ، ٦٣٣هـ) على استيزاره من قبل المقتفي بقوله : « وصفت له الدنيا ، وسعد بوزيره ابن

---

(١) ابن الكازروني ، مختصر التاريخ (بغداد ، ١٩٧٠) ٢٣١ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٦/ ٢٣٥ .

هبيرة)(٣) ، فقد انحدر من وسط اجتماعي متواضع حيث كان من طبقة الكادحين وكان والده اكاراً (٤) ، يحث ولده على تحصيل الادب والعلم وكان يردده صغيرا الى بغداد ويحضره الى مجالس الصدور وصدور المجالس ، ومات ابوه وهو صبي متفرد بالاشتغال فمكث فيها مدة ومشاهدته في كل سنة مائة الف دينار ، وكان مولده في قرية تعرف بالدور(٥) من اعمال الدجيل (٦) ، وتدرج في المناصب ، وأول ولايته الاشراف بالأقرحة الغربية ، ثم نقل الى الاشراف على الامانات المخزنية ، ثم قلد الاشراف بالمخزن ولم يطل في ذلك مكثه حتى قلد في (سنة ٥٤٢هـ) ديوان الزمام(٧) ، ولعل سبب استيزاره يعود الى كونه اظهر شجاعة وكفاءة في الدفاع عن بغداد ومقر الخلافة

---

(٣) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس (بغداد ، ١٩٤٦) ١٥٧ .

(٤) الاكار : الزراع ، وفي رواية الحراث للذي يحرث في الارض ، وفي الحديث : انه نهى عن المؤاكره ، يعني المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الارض (ابن منظور ، لسان العرب ، ١/٧٧) .

(٥) الدور : قرية من عمل دجيل تعرف بدور بني أوقر ، وهي المعروفة بدور الوزير ، وهو الوزير ابن هبيرة ، لانه كان منها ، وبنى الوزير بها جامعا ومنارة بينها وبين بغداد خمسة فراسخ (البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ٢/٥٤٠) .

(٦) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية ، ٣١٢ .

(٧) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ٦/٢٣١ .

المحاصرة من قبل السلاجقة من انصار محمود السلجوقي ، بسبب معاداة مسعود للخلافة ، ففي عام ٥٤٣ هـ وصلت قوات كبيرة من آكابر الامراء السلاجقة وعلى رأسهم محمود السلجوقي وضربوا الحصار حول بغداد وطلبوا من الخليفة ثلاثين الف دينار ليرحلوا عنها ، واختلف رجال الخلافة العباسية في تحقيق مطالب السلاجقة ، في الوقت الذي أصر ابن هبيرة على وجوب رفض طلب السلاجقة ، وكان هو على ديوان الزمام حيث قال للخليفة : « هؤلاء خرجوا عليك وعلى السلطان وجاهروا بالعصيان ، فأجعل بالله الاستجارة ، وقدم منه الاستخارة وانفق ما عزمت على بذله لهم في عسكر يقاومهم ويدفع شرهم ، فانك ان دفعتهم بالعطاء لم تسلم من عبث السلطان مسعود ، وان هزمتهم باللقاء قلت له اني قللت جنود عصيانك من اهل طاعتك بجنود ، وانت لاتحمد على ما تحمل ولا تشكر على تعمل» (٨) ، فاستمع الخليفة لرأيه وجمع الجيوش وقال : « انـي ارى المشورة الهبيرية اريا مشورا وصوب صوابه ليرى الرأي مشكورا فجاء به وزر عليه صبيب الوزارة ..) (٩) . وعلى اثر انتصار الخليفة على السلاجقة ، استدعاه الخليفة الى داره وقلده الوزارة

---

(٨) البنداري تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢٠٥ .

(٩) نفسه ، ٢٠٥ ومعنى : « أرياً مشوراً : اي عسلا مجتنى او مستخرجا » .

كما سنرى فيما بعد وذلك في ربيع الآخـــر سـنة ٥٤٤هـ ، وكان القمر على تربيع زحل ، « فقيل له لو أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات ؟ فقال وأي السعادة اكبر من وزارة الخلافة؟ ولبسها ذلك اليوم»،

---

(١٠) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١١/١٤٦ « وقد استدعى الخليفة المقتفي عون الدين بمطالعة على يد اميرين من امراء الدولة ، فتبين بقراءته لها التباشير في اسرته فركب الى دار الخليفة في جماعته وتسامع الناس بوزارته ولما وصل الى باب الحجرة استدعي فدخل وقد جلس له المقتفي بيمينه التاج ، فقبل الارض وسلم ، وتحدثا ساعة بما لم يحط به غيرهما علما ، ثم خرج وقد جهز له التشريف على عادة الوزراء فلبسه ثم استدعي ثانيا فقبل الارض ودعا بدعاء المحبب للخليفة ثم انشده :

ساشكر عمرأ ما تراخت منيتي
أيادي لم تمنن وان هـي جلت
رأى خلتي من حيث يخفي مكانها
فـكانت بمـرأى حتى تجلـت

ثم ان عون الدين خرج فقدم له حصان ادهم سائل الغرة ومحجل عليه من الحلي ما جرت به عادتهم مع الوزراء وخرج بين يديه ارباب المناصب واعيان الدولة وامراء الحضرة من جميـــع خدام الخلافة ، وسائر حجاب الديوان والطبول تضـرب امامـه والمستند وراءه محمول على عادتهم في ذلك حتى ادخل الديوان ونزل على طرف الديوان وجلس في الدست وقـام لقراءة عهده الشيخ سديد الدولة ابو عبدالله محمد بن عبدالكريم الانباري ،

ولقبه الخليفة « عون الدين » وكان الوزراء السابقون يلقبون « سيد الوزراء » فرفض ان يلقب بذلك ، ويرى د . حسين امين ان العباسيين تأثروا بالسلاجقة في تلقيب وزرائهم بهذه الالقاب وغيرها(١٢) ، ولذا فانه كرم من قبل الخليفة ، وقد اشاد بذكره المؤرخون ، يقول ابن طباطبا : « كان المقتفي والمستنجد يقولان : ما وزر لبني العباس كيحيي بن هبيرة في جميع احواله ، وكان له في قمع

وكان لقبه جلال الدين ، فلما ولي الوزارة لقبوه عون الدين ، (ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٢٧٦/٦ ـ ٢٧٧) ، وانظر في ذلك عن تقليده الوزرة : (ابن الجوزي) ، المنتظم ، ١٣٧/١٠ ، الذهبي ، العبر ، ١٢١/٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢٥/١٢ .

(١١) يقول ابن طباطبا ، ومن افكاره اللطيفة ان الوزراء كانوا يلقبون قبله القابا من جملتها سيد الوزراء ، فتقدم هو الى الكتاب الا يكتبوا هذا اللقب في القابه وقال : انني فكرت في هذا فرأيت الله تعالى قد سمى هارون وزيرا حتى قال عز من قائل ، حكاية عن موسى عليه السلام « واجعل لي وزيرا من اهلي هارون اخي اشدد به ازري» . وسمعت عن النبي عليه السلام انه قال : « لي وزيران من اهل السماء ، جبرائيل ، وميكائيل ووزيران من اهل الارض ابو بكر وعمر » وقال عليه السلام : « ان الله تعالى اختار لي اصحابا فجعلهم وزراء وانصار » ، (الفخري في الاداب السلطانية ، ٣١٣) .

(١٢) د . حسين امين ، مجلة سومر ، م٢٠ ، (بغداد ، ١٩٦٤)، ٢١٥ .

الدولة السلجوقية يد قوية وحيل مرضية»(١٣) ، وكان ذا رأي وعلم ودين وثبات في الامـور (١٤) ، وكـان يلجأ الى الاساليب الحكيمة في مواجهة اعداء الخلافة العباسية بلجوئه الى الحيل والدهاء(١٥)، وكان حريصا جدا في المحافظة على اسرار واوامر الخليفة بسرية شديدة • فيروي ابن طباطبا انه « كان يكتب الى ملوك الاطراف ولصقات صغارا في رق خفيف ويشق في

---

(١٣) ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ٣١٢ •

(١٤) القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ، ٣٦٧ •

(١٥) يذكر ابن طباطبا انه كان ببعض بلاد العجم رجـل كلمـا اقيمت الخطبة يوم الجمعة في الجامع يقوم ويذم الخليفة ويدعو للسلطان ، فأتصل ذلك بالوزير ابن هبيرة ، فأحضر شخصا من اهل بغداد ، وامره ان يسافر الى تلـك البلـدة واعطاه عشرة دنانير ذهبا وقارورة فيها خطر وقال له : « اذا دخلت تلك البلاد وحضرت يوم الجمعة في الجامع ورأيت الرجل الذي يسب الخليفة فانهض اليه وانت على التجار وأمن على كلامه واظهر البكاء عند سبه الخليفـة وقل : اي بالله ، فعل الله به وصنع ، وهل غربني عن عيالي ووطني وافقرني غيره ؟ ثم افعل في الجمعة الثانية كذلك ، وقل له : قد حلفت اني املأ فمك دنانير ، وضع هذه الدنانير حشو فمه ، واخرج عنه ، وبادر الى استعمال هذا الخطر على وجهك ولحيتك فانه يحدث في الوجه سمرة وفي شيب اللحية سوادا ، وغير زيك حتى لا تعـرف فتهلك ، ففعل الرجل ذلك ، وكانت الدنانير مسمومة ، فلما راح ذلك الرجل الى بيته مازال يتعلعل حتى مات من يومه واستعمل الرجل المنقذ الصبغ فأخفى به نفسه ورجع الى بغداد ، (الفخري في الاداب السلطانية ، ٣١٤) •

جلد ساق الركابي بمقدار ما يدخلها ثم يتركه حتى يلتحم ويسيره الى حيث آراد »(١٦) • فضلا عن انه كان قد اشتغل بالعلم ومجالسة الفقهاء والادباء ، وكان ممن سمع عنه الحافظ ابو الفرج ابن الجوزي ، واكرم اهل العلم والف كتبا مهمة (١٧) ، وكان

---

(١٦) ابن طباطبا ، الفخري ، ٣١٤ •

(١٧) ويشير ابن خلكان الى انه دخل بغداد في صباه واشتغل بالعلم وجالس الفقهاء والادباء وكان على مذهب الامام احمد ابن حنبل ، وسمع الحديث وحصل من كل ذلك طرفا ، وقرأ الكتاب العزيز وختمه بالقرآن والروايات ، وقرأ النحو واطلع على ايام العرب واحوال الناس ، ولازم الكتابة وحفظ الفاظ البلغاء وتعلم صناعة الانشاء ، وكانت قراءته الادب على ابي منصور ابن الجواليقي ، وتفقه على ابي الحسين محمد بن محمد الفراء وصحب الشيخ ابا عبدالله محمد بن يحيى بن علي بن مسلم بن موسى بن عمران الزبيدي الواعظ ، وسمع الحديث النبوي من ابي عثمان اسماعيل بن محمد بن تيلة الاصبهاني ومن ابي القاسم هبة الله بن محمد بن الحسين الكاتب ومن بعدهما ، وحدث عن الامام المقتفي لامر الله امير المؤمنين وعن غيره وسمع منه خلق كثير منهم الحافظ ابو الفرج ابن الجوزي •• » (وفيات الاعيان ، ٢٧٤–٢٧٥ ، وصنف كتبا من ذلك كتاب « الافصاح عن شرح معاني الصحاح » ، وكتاب « المقتصد » ، واختصر كتاب «اصلاح المنطق» لابن السكيت، وله كتاب العبادات في الفقه على مذهب الامام احمد ، وارجوزة في علم الخط وغير ذلك •• » ٢٢٧ •

متواضعا يتصف بالسماحة والخلق الجديد (١٨) •
ويروى انه أمر باخراج احد الشيوخ ومنعه من الصلاة بالناس لانه زور بعض الكتب (١٩) •

لقد اشاد المؤرخون بمكانة وشخصية الوزير ابن هبيرة ، فقال عنه ابن الجوزي (ت ، ٥٩٧هـ) : «وكان يجتهد في اتباع الصواب ، ويحذر الظلم ، وكان يتحدث بنعم الله عليه ، ويذكر في منصبه شدة فقره القديم •••» (٢٠) ، وقال عنه ابن الاثير (ت ، ٦٣٠هـ) : «كان ، خيرا ، عالما •• وكان ذا رأي شديد» (٢١) ، وقال عنه ابن خلكان (ت ، ٦٨١هـ) : «وظهر منه في ايام ولايته ما شهد له بكفايته وحسن مناصحته وكان مكرما لاهل العلم ،

(١٨) راجع ابن طباطبا ، الفخري ، ٣١٢-٣١٣ وكان كثيرا ما ينشد نفسه :

يا أيها الناس اني ناصح لكم
فعوا كلامي فاني زدت تجاريب
لا تلهينكم الدنيا بزخرفها
فما يدوم على حسن ولا طيب

(القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ، ٣٦٧) •

(١٩) ابن الجوزي ، غاية النهاية في طبقات القراء ، ج٢ (القاهرة ، ١٩٣٣) ٢٩٥ •

(٢٠) المنتظم ، ١٠/٢١٥ ، ٢٤١ •

(٢١) الكامل في التاريخ ، ١١/٣٢١ •

يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم » [٢٢] ، وقال عنه ابن طباطبا (ت ، ٧٠٩هـ) : « له في تدبير الدولة وضبط المملكة اليد الطولى ، وله في العلوم والتصانيف التبريز على اهل عصره»[٢٣] . واشاد به الذهبي (ت ،٧٤٨هـ) قائلا : « كان من اعيان الفقهاء الصالحين ، جم الفضائل ، وافر الحرمة ، كبير الشأن ، دائم العدل ، له تصانيف ، مات مسموما شهيداً ببغداد ، وشيعه الخلق ، وكثر البكاء والتأسف عليه رحمه الله » [٢٤] ، وقال عنه : « وكان شامة بين الوزراء لعدله ودينه وتواضعه ومعروفه » واشاد به ابن كثير [٢٥] ، (ت ، ٧٧٤هـ) فقال : « كان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة ، وابعدهم عن الظلم » [٢٦] ، وقال ابن القطيعي : « كان ابن هبيرة عفيفا في ولايته محموداً في وزارته كثير البر والمعروف» [٢٧] . وقال عنه ابن تغري بردي (ت ، ٨٧٤هـ) : « صنف الكتب الحسان .. سار في الوزارة أجمل سيرة وكان دينا جوادا كريما » [٢٨] .

---

(٢٢) وفيات الاعيان ، ٦/٢٣٣ .
(٢٣) الفخري في الاداب السلطانية ، ٣١٤ ، ٣١٥ .
(٢٤) دول الاسلام ، ٢٢/٧٤ ، ٧٥ ، العبر ، ٤/١٧٣ .
(٢٥) اليافعي ، مرآة الجنان ، ٣/٣٤٥ .
(٢٦) البداية والنهاية ، ١٢/٢٥٠ .
(٢٧) ذيل طبقات الحنابلة ، ٣/٢٧٤ .
(٢٨) النجوم الزاهرة ، ٩٥/٣٦٩ .

مما تقدم يتبين لنا ان الوزير ابن هبيرة كان شخصية مرموقة كفءاً ، لا تقل اهميته وكفاءته عن الخليفة ، فكلاهما من الشخصيات الطموحة والنابغة في الميدان السياسي والعسكري بل وحتى العلمي ، وبذلك تمكن من ان يعيد للخلافة العباسية وللعراق هيبتهما وكرامتهما من تغلب السلاجقة الذين سيطروا على الوضع ردحا من الزمان ، وكان كلاهما من القادة العسكريين الجيدين ، قال ابن دحية : « وخرج الخليفة يقاتل من ناوءه ويقاتل من عاداه ، وقد هزم غير واحد ، ودفع بنفسه ، وكذلك وزيره ابن هبيره حمل على الاعداء عدة حملات »(٢٩) . وبتقليد المقتفي لابن هبيرة الوزارة تبدأ مرحلة جديدة وجدية في تاريخ نضال الخلافة العباسية ممثلة بشخصيتيهما الفذتين واخلاصهما في عملهما، وتبدو ثمرات هذا النضال بتحقيق انتصارها في الميدان السياسي والعسكري على اعداء الخلافة ومن ثم اعادة الهيبة لها ، وتحرير العراق من سيطرة المتغلبين عليه .

---

(٢٩) ابن دحية الكلبي ، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس (بغداد ، ١٩٤٦) ، ١٥٧ .

الفصل الخامس

الازمات الداخلية ودور الخليفة في القضاء عليها

شهد العراق في عهد الخليفة المقتفي لامر الله الكثير من الازمات الاجتماعية والسياسيةوالعسكرية والتي كانت نتيجة متوقعة للغزو السلجوقي ، كما كان للظروف والاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بل والطبيعية نصيبا منها ، واسهمت تلك الاحداث في علو مكانة الخليفة من خلال معالجته لها ، بل وزادت في علو مكانته في نظر المؤرخين ، للدور الفاعل الذي ظهر به في مواجهة الازمات والتغلب عليها ، في بغداد خاصة ، والعراق عامة ، وسنتطرق الى جملة من الازمات الداخلية التي عاشتها الخلافة وكيفية معالجتها من قبل الخليفة ورجال دولته ، فقد اظهر الخليفة المقتفي لامر الله منذ البداية حزما وعزما على مواجهة السلاجقة ، فبعد سنة فقط من توليه الخلافة ، وبالذات في عام ٥٣١هـ/١١٣٦م ، اعيدت بلاد الخليفة معاملاتها اليه
٥٣١هـ/١١٣٦م ، اعيدت بلاد الخليفة معاملاتها اليه
، والتركات واستقر عن ذلك عشرة الاف

دينار(١) • وفي العام التالي ٥٣١هـ/١١٣٦م ، امر الخليفة باعدام عشرة عيارين مفسدين جيء بهم فصلبوا في الاسواق وصلب رجل آخر كان قد لكم صبيا فمات(٢) •

وكان الشحنة السلجوقي في عام ٥٣١هـ/١١٣٦م نفسه قد قتل صبياً ، فصلب الشحنة عقوبة على جريمته (٣) ، وبدأ الخليفة يتخذ عدة اجراءآت تؤكد قوة شخصيته وعزم ارادته ، ففي عام ٥٣٣هـ/١١٣٨م طرد الخليفة الكتاب من اهل الذمة من الديوان والمخزن (٤) •

كما شهدت بغداد في عهد المقتفي جملة من الاحداث الاجتماعية ، بسبب اعتماد السلاجقة سياسة « فرق تسد » بين فئات المجتمع العراقي ، وتقوية النعرات الطائفية بين ابنائه للسيطرة عليه من خلالها ، فقد حدثت فتنة ببغداد في عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م بين اهل باب الازج وبين أهل المأمونية ، حيث قتل عدد كبير من الجانبين (٥) ، وفي عام ٥٣٦هـ / ١١٤١م حدث تمرد قبلي ضد الخلافة ، الا ان قوات الخلافة تمكنت من القضاء على التمرد واعادة الامن ، على ان اكبر الازمات الاجتماعية

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/٦٨ـ٦٩ •
(٢) نفسه ، ١٠/٧٢ •
(٣) نفسه ، ١٠/٧٢ •

خطورة هي حركات العيارين والشطار التي حدثت في ٥٣٠هـ ، حيث هاجم العيارون ببغداد محلات الناس ونهبوها ، وحاول مسؤول الامن السلجوقي «الشحنة» التدخل في الامر ، حينما هاجموا دار الرقيق ، فثار عليه اهل المحال القريبة ، فقاتلهم وأحرق الشارع ، فاحترق فيه عدد كبير من الناس فأضطر الناس الى الانتقال الى الحريم الطاهري ، فدخل الشحنة ونهب منه مالا كثيرا (٦) • وعلى اثر هذه الاحداث عزل مجاهدالدين بهروز عن شحنكية بغداد •

ويبدو ان هذه الحركات الاجتماعية كانت بمثابة ردود الفعل الشديدة من قبل الناس عامة والعيارين نتيجة فقدان الامن في عهد مسعود السلجوقي على بغداد ، وحينما دخل مسعود السلجوقي بغداد سنة ٥٣٦هـ ورأى نفوذ العيارين فيها اعاد بهروز الى الشحنكية ، قال ابن الاثير « ان ولد الوزير وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين » (٧) ، وبطبيعة الحال ان الوزير هو وزير المتسلط السلجوقي وليس وزير الخليفة العباسي ، ولذا فان

---

(٤) نفسه ، ١٠/٧٨ •
(٥) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٤٦ •
(٦) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٤٥ •
(٧) نفسه ، ١١/٨٩ •

هذا النص يكشف لنا اثر بعض السلاجقة في خلق بعض الاحداث الاجتماعية من اجل تحقيق مكاسب مادية ، ومن اجل تمزيق وحدة المجتمع العراقي ، على ان ابرز حركات العيارين في عهد المقتفي كان في عام٥٣٨هـ ، ويعلل ابن الاثير اتساع هذه الحركة بانه كان « ... بسبب ابن الوزير وابن تاورت أخي زوجة السلطان لانهما كان لهما نصيب في الذي يأخذه العيارون » (٨) .

وعلق ابن الجوزي على فساد العيارين في سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م بقوله : « قدم مسعود السلجوقي فنزل اصحابه في دور الناس وتضاعف فساد العيارين بدخوله ، وكثرت الكبسات والاستسقفاء نهارا،ونقل الناس رحالهم الى دار الخلافة وباب المراتب ، وكان اللصوص يمشون بثياب التجار في النهار ، فلا يعرفهم الانسان حتى يأخذوه فأخذت طرق الصيارف وضاقت المعايش ، وكان للعيارين عيون على الناس من النساء والرجال يطوفون الخانسات والرحبة والصيارف والجوهريين،فاذا عاينوا من قد باع شيئاً تبعوه وأخذوا ما معه وكان يجتمعون في دور الذين يحمونهم في دار وزير السلطان السلجوقي ودار ميرنقش .. » (٩) .

---

(٨) نفسه ، ١١/٩٥ .
(٩) المنتظم ، ١٠/١٠٦ .

وكان نائب الشحنة ايلدكز شديدا وصارما فأخبر مسعودا السلجوقي بحقيقة الوضع حينما اتهمه مسعود بالتقصير امام العيارين ، فأجابه « يا سلطان العالم اذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك واخا امرأتك فأي قدرة على المفسدين »(١٠) فامره مسعود باعدامهما وفعلا تم اعدام ابن قارون في حين هرب ابن وزيره واكثر العيارين(١١) .

ويبدو ان عامة الناس كانوا يعلمون بحقيقة ابن الوزير وأخي زوجة مسعود ، ويبدو أن خشية مسعود من هياج عامة الناس في بغداد جعلته يصدر امره باعدام هؤلاء . ويلاحظ ان مسعودا السلجوقي كان هو صاحب النفوذ في السلطة ، وما يزال المقتفي في بداية صراعه مع هؤلاء المتغلبين .

ونتيجة لهذه العوامل وغيرها فانه حدثت عدة حرائق في بغداد ، لعل من اخطرها الحريق الكبير الذي حدث سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م حينما احترق القصر الذي بناه الخليفة المسترشد ، وكان في غاية الحسن ، وقد انتقل الخليفة المقتفي بجواريه وحظاياه اليه ليقيم فيه ثلاثة ايام ، فما ان ناموا حتى

---

(١٠) ابن الاثير ، الكامل ، ٩٥/١١ .
(١١) نفسه ، ٩٥/١١ .

احترق عليهم القصر (١٢) ، ويعلل ابن سمير الحريق بان جارية كانت تحمل شمعة وادت الى احتراق بعض جوانب القصر ، وعند الصباح تصدق الخليفة على الناس واطلق عددا من المسجونين مقابل سلامته من الحريق (١٣) ، وربما كان للعناصر المعادية للخلافة يد في ذلك ،وفي عام ٥٥١هـ/١١٥٦م احترقت بغداد ، واحترق درب براثا ، ودرب الدواب ، ودرب اللبان، وخرابة ابن حرية ، والظفرية والخاتونية ، ودار الخلافة ، وباب الازج ، وسوق السلطان ، وغير ذلك (١٤) .

ونتيجة لاضطراب الاوضاع الداخلية ، فقد اهملت مشاريع الري ، واهملت السدود والقناطر التي كانت تنشأ لمجابهة خطر الفيضان نتيجة لعدم وجود استقرار داخلي ، وادى هذا الاهمال الى تعرض العراق عامة وبغداد بخاصة الى فيضانات عديدة ادت الى الحاق ضرر كبير بالاقتصاد ، وبالحالة الصحية والاجتماعية للسكان ، ففي عام ٥٤٦م/١١٥١م انفجر بثق النهروان نتيجة لزيادة مناسيب المياه واهمال الري ، حتى ادى هذا الى الحاق ضرر كبير بالناس (١٥) ، على ان اخطر الفيضانات التي شهدها

---

(١٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/٢٢٠ .

(١٣) نفسه ، ١٢/٢٢٠ .

(١٤) ابن الاثير ، الكامل ، ١١/٢١٦ .

(١٥) ابن الاثير ، الكامل ، ١١/١٥٧ .

العراق كان في عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م ، في الوقت الذي عاد فيه الخليفة المقتفي الى بغداد بعد ان كان يقوم بزيارة تفقدية الى واسط ، مما ادى الى غرق بغداد(١٦) ، بعد أن زادت دجلة زيادة عظيمة ودخل الماء الى بغداد وخندقها فوقع بعض سورها ، واخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها البعض ، فكثر الخراب ، وبقيت المحال لا تعرف انما هي تلول ، ومن المناطق التي غرقت في الجانب الشرقي ، قراح ظفر ، والاجمة ، والمختارة ، والمقتدية ، ودرب العيسار ، وخرابة ابن جردة ، والريانة ، وقراح القاضي ، وبعض القطيعة ، وبعض باب الازج ، وبعض الحانوتية ، وقراح ابي الشحم ، وبعض قراح ابن رزين ، وبعض الظفرية ، واما الجانب الغربي فغرقت فيه مقبرة الامام احمد بن حنبل وغيرها من المقابر ، وانخسفت القبور المبنية « وخرج الموتى على رأس الماء » وكذلك المشهد والحربية « وكان امراً عظيماً »(١٧) . يقول ابن الجوزي « وجئنا الى دارنا بدرب القيار بعد ايام والدنيا كأنها بطيحة فلم نعرف درب القيار الا بمنارة المسجد ، وكان الماء يقرب من الحائط فيقع ، وكان كأنه سخط من الله عزوجل

---

(١٦) البنداري ، المصدر السابق ، ٢٢٦ .

(١٧) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٢٤٨/١١ .

لكثرة الذنوب» (١٨) ويعد هذا الفيضان أسوأ كارثة طبيعية تعرضت لها بغداد في عهد الخليفة المقتفي لامر الله •

وابتداءاً من سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م ، اراد الخليفة اصلاح مشاريع الري في العراق ، ففي ذات العام فرغ من حفر نهر دجيل (١٩) ، وفي عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م بدأ الشحنة بهروز وبامر المقتفي بعمل سكر النهروانات فبناه دفعتين ، وهو يتفجر ثم استحكم في الثالثة ، وما زال يعمل عليه الى ان مات في سنة ٥٤٠هـ • وتم في عام٥٣٦هـ/١١٤١م عمل بثق النهروان ، وروي انه انفق على سكر النهروانات سبعين الف دينار (٢١) ، وفي سنة ٥٥١هـ، خرج الخليفة بنفسه الى ناحية الدجيل ، وكان قد تولى حفر نهر الدجيل وعاد بعد ان تفقد العمل فيها (٢٢) ، وفي العام ٥٥٢هـ خرج الخليفة فنزل باوانا ، وقصد فم الدجيل ، وكان الحفر فيه متواصلا ثم عاد وقصد نهر الملك ورحل(٢٣) ، ثم كرر زيارته التفقدية لمشروع الدجيل حيث عاد اليها في شعبان

---

(١٨) ابن الجوزي ، اهل الاثر في عيون التواريخ والسير (القاهرة ، ١٩٧٥) ، ٩٥ـ٩٦ •

(٢٠) نفسه ، ٨٤/١٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ٣٦٨/٨ •

(٢١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٩٥/١٠ •

(٢٥) نفسه ، ١٦٥/١٠ •

(٢٣) نفسه ، ١٧٦/١٠ •

سنة ٥٥٣هـ ، فاقام بها اياما ثم عاد الى بغداد(٢٤) • كما ان الزلزال كان له نصيب في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ العراق ، فقد اصاب مناطق مختلفة من العراق فخرب كثيرا منها ، وهلك تحت الهدم عالم كثير (٢٥) ، وذلك في سنة ٥٣٢هـ ، وادى هذا الى الغلاء وانعدام الاقوات بالعراق(٢٦) ، فضلا عن وجود موجات الجراد الصحراوي ، الذي هاجم العراق سنة ٥٤١هـ ، يقول ابن الاثير : « كان بالعراق جراد كثير أمحل اكثر البلاد (٢٧) » ، وادى هذا الى غلاء الاسعار بالعراق وبخاصة في سنة ٥٤٣هـ ، حينما « تعذرت الاقوات وقدم اهل السواد الى بغداد منهزمين قد اخذت اموالهم وهلكوا جوعا وعريا »(٢٨) وكثرت الاوبئة حيث انتشرت الامراض بالعراق ولا سيما في بغداد وكثر الموت فيها (٢٩) ، وكان ذلك في عام ٥٣١هـ(٣٠) وعام ٥٤٥هـ(٣١) ، فضلا عن ذلك نجد ان السلاجقة كانوا يلعبون ادوارا سيئة في الحاق الضرر بالعراق وأهله ، ولتعقيد الوضع الداخلي فيه ، ففي عام ٥٣١هـ/١١٣٦م ، عادت

---

(٢٤) نفسه ، ١٨١/١٠ •

(٢٥) ابن الاثير ، المصدر السباق ، ٦٦/١١ •

(٢٦) نفسه ، ٧٧/١١ •

(٢٧) نفسه ، ١١٨/١١ •

(٢٨) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٣٧/١١ •

(٢٩) نفسه ، ١٥٢/١١ •

(٣٠) نفسه ، ٥٤/١١ •

الجبايات السلجوقية مرة اخرى وضاق بهـا الناس عنفا وشدة ظلم (٣٢) ، وفـي سـنة ٥٣٦هـ/١١٤١م هاجم اتابك زنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة ورتب اصحابه فيها ، وظلم اهلها (٣٣) ، وعنـدما هاجـم السلاجقة العراق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، نهبوا حوالي البلد وأخذوا غلات الناس ، وخرجـوا الى الدجيـل ، واخذوا نساء الناس وبناتهم ، وجـاءوا بهـن الى الخيم ، وقال القزويني الواعظ : « لو جاء الافرنج لم يفعلـوا هـذا !! اي ذنـب لاهـل القـرى والرساتيق ؟ ... » (٣٤) ثم وقع الغلاء والقحط (٣٥) ، فضلا عن ذلك فان السلاجقة كانوا ياخذون الرشاوي . فيروى ان ابا الغناء يحيى بن سعيد المعروف بابن الرحم القاضي ، كان بئس الحاكم يأخذ الرشا ويبطل الحقوق وتزايدت الاسعار حتى بلغ الكر (٣٦) الشعير سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م ، اربعين دينـارا ، والحنطـة ثمانـين دينارا ، فنادى الشحنة ان لايبـاع الكـر

---

(٣١) نفسه ، ١١/١٥٢ .
(٣٢) المنتظم ، ١٠/٦٩ .
(٣٣) الكامل ، ٩/٥ .
(٣٤) المنتظم ، ١٠/١٣٢ .
(٣٥) المنتظم ، ١٠/١٣٤ .
(٣٦) الكر : وحدة مكيال = ٢٩٢٥كغم للقمح ، و٥ر٢٤٣٧كغم للشعير هنتس ، الاوزان والمكاييل ، ترجمة كامل العسلي (عمان ، ١٩٧٠) ص٧٠ .

الدقيق الا بدينار ، فهرب الناس وغلقوا الدكاكين وعدم الخبز أربعة ايام ، فبقي الأمر كذلك اشهرا ثم تراخى السعر (٣٧) .

ولقد أهتم المقتفي باصلاح الامور الاقتصادية للعراق ، ومواجهة ما لحق بالناس من ظلم وتعسف السلاجقة ، حيث امر الخليفة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م بازالة المواصير والمكوس ونقشت الالواح بذلك (٣٨)، وفي العام التالي ٥٣٣هـ/١١٣٨م رفع المكوس والضرائب (٣٩) ، وكذلك في العام ٥٤١هـ/١١٤٦م، حيث طيف بالالواح التي نقش عليها ترك المكس في الأسواق (٤٠) ، وكذلك في سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م ، التي أسقط المكس فيها (٤١) .

وكانت الخلافة تسعى جاهدة لمعالجة تلك الازمات ، فعلى اثر ارتفاع الاسعار وغلائها في العراق عام ٥٤٣هـ نجد أنه في السنة التي تلتها مباشرة وبعد اجراءات سليمة اتخذتها الخلافة رخصت الاسعار في العراق ، وكثرت الخيرات ، وخرج أهل السواد الى قراهم (٤٢) ، كما ان الخليفة

---

(٣٧) المنتظم ، ١٠/١٢٥ .
(٣٨) نفسه ، ١٠/٧٨ .
(٣٩) نفسه ، ١٠/٧٨-٧٩ .
(٤٠) نفسه ، ١٠/١٢٠ .
(٤١) نفسه ، ١٠/١٤٣ .
(٤٢) ابن الاثير ، الكامل ، ١١/١٤٦ .

ووزيره ابن هبيرة كانا يحاولان معالجة الأزمة المعاشية للسكان من خلال المساعدات التي كانت تمنح للفقراء بصفة خاصة ، وفي مناسبات عديدة ، فنجد أن الخليفة المقتفي « اطلق للفقراء مالا كثيرا »(٤٣) ، بخاصة في الاماكن التي تعرضت لأذى السلاجقة ابان حصارهم لبغداد في عهد محمد السلجوقي ، كما ان الوزير ابن هبيرة ، أنفق خمسة الاف دينار ، بعضها للصدقة وبعضها في قضاء ديون اهل المحبوس وغيرهم(٤٤) ـ كما انه في عام ٥٥٢هـ، انفق الوزير ابن هبيرة ما يقارب ثلاثة الاف دينار على موائد الافطار طول شهر رمضان « وخلع على المفطرين الخلع السنية »(٤٥) وذلك في العيد ، وفي عام ٥٥٤هـ ، لما مرض الخليفة المقتفي لامر الله فرقت الصدقات وذبح كل واحد من ارباب الدولة من البقر وفرقت الكسوة على الفقراء ، ورغم ان هذه المساعدات كانت محدودة ، الا انها اسهمت بعض الشيء في التخفيف مما كان يعاني منه العديد من الفقراء والمساكين نتيجة لاوضاع سابقة وبذلك يمكن للقارىء ان يلمس ، مدى كثرة المشكلات والازمات الداخلية ، فضلا عن كثرة المشكلات

---

(٤٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٧٦/١٠ ـ
(٤٤) نفسه ، ١٨٩/١٠ ـ
(٤٥) نفسه ، ١٨١/١٠ ـ

السياسية والاحداث العسكرية التي واجهت الخليفة . ويبدوا ان اغلب الازمات الداخلية قد حدثت في السنوات الاولى لحكم المقتفي ، ثم اخذت في التناقص تدريجيا مع ازدياد كفاح ونضال الخليفة ، ضد مصادر تلك الاضطرابات ومسببيها ، ومن بين العوامل التي اسهمت في حل هذه المشكلات والتعرف على مسببيها منذ البداية كثرة الزيارات التفقدية التي قام بها الخليفة المقتفي لعدد من مدن العراق لكي يكون قريبا من الاحداث وليطلع بنفسه عن قرب على اوضاع العراق ومدنه .

الفصل السادس

الزيارات التفقدية التي قام بها المقتفي لامر الله لمدن العراق

وعنايته بالحركة الفكرية

الزيارات التفقدية التي قام بها الخليفة المقتفي لأمر الله لمدن العراق

قام الخليفة المقتفي لامر الله بعدة زيارات تفقدية لعدد من مدن وقرى العراق ، وذلك للتعرف على اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وليطلع بنفسه على احوالها وظروفها ، وكانت زياراته متكررة ومتعددة ، وان أول الزيارات التفقدية للخليفة المقتفي قيامه بزيارة تفقدية لمشروع قناة الدجيل ، حيث خرج الى ناحية الدجيل ، وكان قد تولى حفره صاحب ديوانه ابن جعفر ، وذلك في عام ٥٥١هـ(١) ، وفي سنة ٥٥٢هـ ، تكررت زيارته للدجيل ، ثم في عام ٥٥٣هـ التي اقام بها أياما ثم عاد الى بغداد ، وكان في زيارته هذه يتفقد مشروع قناة الدجيل وما انجز من امر حفرها (٢) ، كما شهدت مدينة الأنبار ، زيارات متعددة ومتكررة من قبل الخليفة نتيجة لموقعها المهم في المناطق الغربية من العراق ، وعلى اطراف الصحراء ، وكان ابرز زياراته لها في سنة ٥٥١هـ ، حيث سار في أسواقها ودروبها متفقدا لاحوالها (٣) ، وعاد الى

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/١٦٥ .

(٢) نفسه ، ١٠/١٧٦ ، ١٨١ .

(٣) نفسه ، ١٠/١٦٥ .

زيارتها ثانية عام ٥٥٣هـ(٤) ، ومن الأنبار اتجه الى مدينة كربلاء متفقدا احوالها ، وزار قبر الحسين بن علي رضي الله عنه (٥) ، وفي عام ٥٥٥هـ اتجه الخليفة الى مدينة هيت ، وكان مقطعها نور الدولة بن الامير العميد وبعد أن تفقدها عاد الى بغداد(٦) ، وفي سنة ٥٥٠هـ خرج الخليفة من بغداد حين خروج الحجاج فسار معهم الى النجف ودخل جامع الكوفة واجتاز في سوقها وعاد الى بغداد (٧) ، وتعد مدينة واسط من المدن التي اكثر من زيارتها ، وذلك للتأكد من وضعها الامني بسبب أهميتها الاستراتيجية نتيجة لموقعها القريب من الاراضي الايرانية ، حيث يوجد اعداء الخلافة من السلاجقة ، لذلك فقد زارها سنة ٥٥٣هـ ، ودخل في سوقها متفقدا أحوالها وعاد الى بغداد(٨) ، وقام بزيارة اخرى لواسط سنة ٥٥٤هـ واجتار بسوقها وتفقد جامعها (٩) ، ويتطرق البنداري الى زيارة الخليفة هذه فيقول : « .. وأنا نائب الوزير ابن هبيرة بها وخرجت في أصحابي للتلقي وكنت في زحمة اللقاء على غاية التوقي ،

---

(٤) نفسه ، ١٠/١٨١ .
(٥) نفسه ، ١٠/١٨١ .
(٦) البنداري ، المصدر السابق ، ٢٦٧ .
(٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/٦١ .
(٨) نفسه ، ١٠/١٨١ .
(٩) نفسه ، ١٠/١٨٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/٢٤٠

فبصرت بموكب الخليفة ، وقد أقبل في افواجه ، كانه البحر في امواجه ، فنزلت وتقدمت اليه ، وقبلت الأرض بين يديه ، فوقف الركب اشفاقا عليّ من الزحمة ، وكانت رأفته مجبولة على الرأفه والهمة ، وقال له مخلص الدين ابن الكيا الهراسي ، هذا الذي يقول في امير المؤمنين من قصيدته كان يصف هذه الحالة (١٠) :

لما استشفعت العزم وهو مؤيد
بالحزم أسفر بالمنى منك السفر

وبرزت مثل الشمس تشرق للورى
وسناك يحجب عنك ناظراً من نظر

بمظلة سوداء تحكي هالة
وجه الامام يضيء فيها كالقمر

وبعد ذلك عرّفه الوزير بالخليفة ورحب به ، ثم اتجه المقتفي الى دار الديوان بالمدينة ، وجلس ساعة في ايوانه ، وأطلع الخليفة ووزيره على بعض المعاملات في ديوان واسط ثم انصرف الى سرادقه والوزير الى مضاربه ، ونزل رجال الدولة كل منهم على مرتبته (١١) ، ويصف البنداري مجلسا للخليفة

---

(١٠) البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢٦٦ .
(١١) نفسه ، ٢٦٦ .

بمدينة واسط فيقول : « ... وحضرت بميدان واسط والمقتفي رضي الله عنه حاضرا ومعه اولاده وولي العهد المستنجد يوسف وابو علي وابو أحمد وولده المستنجد أبو محمد المستضيء الذي تولى بعده، ولعبوا الكرة ، ولم يلبث بواسط ثلاثة ايام حتى عاد الى بغداد ... » (١٢) ، وقام المقتفي بزيارة اخرى لواسط واتجه بعد ذلك الى الغراف وعزل عن ولايتها ظفراً خادمه وولى عليها ابا جعفر بن البلدي، وقبض على ابن افلح وزير ظفر وعاقبه والزمه بما استخرجه من دفائن ابن حماد وطالبه بها (١٣) .

لقد كان يتفقد احوال الرعية في جولاته تلك ، ثم اتجه الى الغراف ، وبينما كان يتجول في بعض سواقي الغراف ، زلت به فرسه في بعض الطريق فوقع على الارض وشج جبينه بقبضة سيف الركاب ، فانتشله مملوك من مماليك الوزير فاعتقه الوزير وخلع عليه ، وجعل للطبيب ابن صفيه مالا لانه خاط المكان وعاده » (١٤) . حيث كان يعرض حياته للمخاطر من اجل راحة البلاد والعباد ، وكان التعب قد أخذ منه مأخذا ، لانه كان دائم الحركة والتنقل

---

(١٢) نفسه ، ٢٦٦ .
(١٣) نفسه ، ٢٦٧ .
(١٤) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٨٩ .
(١٥) نفسه ، ١٠/١٧٦ .

والتجوال من اجل اسعاد رعيته ، ومن اجل ان يعيد للخلافة مكانتها وحرمتها اللائقة بها ٠

كما كان الخليفة المقتفي يتفقد مناطق بغداد واحياءها ، فبعد فشل حصار محمد شاه لمدينة بغداد، قام الخليفة بتفقد المحلات التي تأثرت بالحصار وأطلق للفقراء مالا كثيراً (١٥) ٠

تشجيع الخليفة للحركة الفكرية :

لقد اولى الخليفة ووزيره الحركة الفكرية في البلاد اهتماما كبيراً حتى ان المقتفي « كان محبا للحديث وسماعه معتنيا بالعلم مكرما لاهله » (١٦) ٠ ويقول عنه ابن دحية : « كان محدثا عالما بالصحيح والسقيم آخذا على يد الظالم آخذا بيد المظلوم»(١٧) ويقول الاربلي : « كانت ايامه تزهو بفعل الخيرات وانشاء العلوم » (١٨) ، وكان وزيره ابن هبيرة مشجعا للعلم والعلماء ، حتى انه كان أحد رجالهم(١٩) ، وله في العلوم والتصانيف على اهل عصره(٢٠) ، وكان البنداري المؤرخ المشهور وصاحب

---

(١٦) العصامي المكي ، سمط النجوم العوالي ، ٣/ ٢٧٤ ٠

(١٧) ابن دحية الكلبي ، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، ١٥٧ ٠

(١٨) خلاصة الذهب المسبوك (بيروت ١٨٨٥) ٢٧٥ ٠

(١٩) راجع ابن خلكان ، ٦/ ٢٣١ وما بعدها ٠

(٢٠) الفخري في الاداب السلطانية ، ٣١٤ـ٣١٥ ٠

كتاب تاريخ دولة آل سلجوق ممن نالوا الحظوة لديه حيث عينه نائبا عنه في واسط (٢١) .

فالحياة الفكرية كان لها نصيبها من الرعـاية والتشجيع على يد المقتفي ، حتى ان وزير الخلافة ، كان شاعراً ، وله اشعار كثيرة منها (٢٢) :

يقين الفتى يزري بحالة حرصـه
فقوة ذا عن ضعـف ذا تتحصل

اذا قل مال المـرء قـل صديقه
وقد يبيع كـل ما كـان يحمـل

وكان كـل مـن الخليفـة ووزيـره يتصـف بالسماحة والخلق الحميدة (٢٣) .

---

(٢١) تاريخ دولة ال سلجوق ، ٢٦٦ .
(٢٢) ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ٣١٤ ـ ٣١٥ .
(٢٣) نفسه ، ٣١٣ ـ ٣١٤ .

الفصل السابع

تصدي الخليفة المقتفي للسلاجقة وانتصاره عليهم

ورغم الحالة الصعبة التي كان يمر بها الخليفة المقتفي، ورغم ضعف موقفه السياسي والعسكري، الا انه صمم بعزم وارداة قوية على مجابهة السلاجقة من اجل تحرير العراق منهم ، حيث صمم على ان يبدأ بتصفية الحساب معهم منذ البداية ، ولقد روى القزويني عن وزير الخليفة قوله : « تطاول علينا مسعود بن محمود السلجوقي فعزم المقتفي ان يحاربه فقلت : هذا ليس بصواب ولا وجه لنا الا الالتجاء الى الله فاستصوب رأيي» (١) ، ولم تنفع محاولات الزواج السياسي في التغيير من سياسة وتعنت السلاجقة تجاه الخلافة ، حيث انهم ظلوا يسيرون على المنهج نفسه والاسلوب العدائي ، رغم ما حدث سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م ، من عقد مصاهرة للمقتفي على فاطمة بنت محمد بن ملك شاه اخت مسعود السلجوقي ، وحضر مسعود والاكابر وتولى العقد وزير الخليفة ونثرت الجواهر والكافور والعنبر (٢) ، وكان الزواج على صداق مائة الف دينار (٣) ، وروى ابن الاثير آنه في

---

(١) القزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ، (بيروت ، ١٩٦٠) ٣٦٧ .

(٢) ابن الجوزي المنتظم ج١٠ (حيدر آباد ، ١٣٥٨) ٦٧ .

(٣) الدياربكري ، تاريخ الخميس ، ٢/٤٠٥ .

سنة ٥٣٥هـ ، تزوج الخليفة بفاطمة خاتون بنت مسعود السلجوقي : « وكان يوم حملها الى دار الخلافة يوما مشهودا ، اغلقت بغداد عدة أيام .. » (٤) ، غير هذا النوع من الزواج السياسي كان مجرد تهدئة مصطنعة لم تحل معها مشكلات الخلافة مع السلاجقة بسبب طموح السلاجقة ورغبة المقتفي لامر الله في ممارسة سلطاته ، خاصة وان مسعود السلجوقي كان مصدرا لخلق متاعب كثيرة للخلافة بخاصة ، نتيجة علاقاته غير الطبيعية مع عدد من الامراء ، واورد ابن الجوزي أنه في سنة ٥٣٨هـ جمع السلطان السلجوقي جيشا كبيرا قاصدا الموصل والشام ولجأ زنكي الى الاسلوب الدبلوماسي حيث تم عقد الصلح على مائة الف دينار ودفع منها ثلاثين الفا وفي رواية ان ابن الانباري خرج وقبض الاموال ، ومما لاشك فيه ان هذا الاسلوب كان يجري على حساب مصلحة الخليفة والخلافة معا . كما ان مسعوداً السلجوقي كان قد خلق متاعب اخرى للخلافة ، وروى ابن الجوزي ان مسعودا السلجوقي قدم بغداد «فنزل اصحابه في دور الناس وتضاعف فساد العيارين بدخوله وكثرت الكبسات والاستقفاء نهارا ، ونقل الناس رحالهم الى دار الخلافة » (٦) ، ويلمس القارىء مدى تدهور

---

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ٧٧/١١ .
(٥) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠٥/١١ .
(٦) نفسه ، ١٠٥/١١ ـ ١٠٦ .

اوضاع الخلافة والذي كان مصدرها السلاجقة انفسهم وتسلطهم على سلطانها ، واثارة المشكلات فيها اذا ما علمنا ان « ابن قاورت وهو ابن عم السلطان مسعود كان في العيارين » (٧) • ولذا تهيأت ظروف النضال الجاد للخلافة ضد السلاجقة وبخاصة وان السلطان مسعود قبيل وفاته كان يعاني من مشكلات عديدة حتى ان مشكلاته هذه لم تسمح له بالاستقرار في مكان معين ، اذ انه كان يتنقل من مكان الى اخر وذلك بسبب كثرة المخالفين والخارجين عليه من اهل بيته وامرائه (٨) • فضلا عن ان الخليفة لم يكن يستسلم لسيطرة المتغلبين ، فكان لابد من حصول التنافر والخلاف بين الخليفة والسلاجقة ، وكان اول قرار يتخذه الخليفة ضد السلاجقة هو محاولة تخلصه من الامير مسعود السلجوقي في بغداد ، فقد روى الراوندي ان الخليفة المقتفي لامر الله قد اتفق مع احد موظفي الملك محمد بن مسعود السلجوقي واسمه عباس وذلك للقبض على مسعود عند خروجه لصلاة العيد ، ولكن حدث ان نزل سيل عظيم في يوم العيد فلم يخرج مسعود السلجوقي للصلاة ، ففشل التدبير ، ثم علم مسعود بذلك التدبير فقبض على العباس

---

(٧) نفسه ، ١١/١٠٦ •

(٨) الخضري ، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ، (القاهرة ، ١٣٨٢) ٤٥٠ •

وقتله (٩) • ويمكن عد هذا الاجراء اول تصرف جريء من قبل الخليفة ضد السلاجقة للخلاص من نيرهم وجورهم(١٠) ، فضلا عن ذلك فان الخليفة المقتفي اتخذ عددا من الاجراءات التي تبين قوته ، ففي عام ٥٣١هـ ، امر الخليفة باعدام الشحنة السلجوقي صلبا ، بسبب قتله صبيا ، وكان الناس قد ساندوا الخليفة في موقفه الصارم هذا ضد الشحنة (١١) ، وفي سنة ٥٣٤هـ انفذ الخليفة خدما وعمالا على البلاد من غير مشاورة احد (١٢) ، وامر الخليفة سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م ان لا يخاطب أحد بمولانا سوى الوزير ، ولا يحمل لاحد غاشية على الكتف سوى قاضي القضاة الزيني (١٣) ، واخذ وزير الخليفة يطلب من مسعود السلجوقي ان يتوسط له عند الخليفة ليرضى عنه • وكان الخليفة المقتفي كما يقول ابن الجوزي : « يعد ذنوبه ومكاتباته واساءاته و ••• فعفا عنه الخليفة » (١٤) ، الامر الذي يدلل على مدى ازدياد مكانة الخليفة وهيبته ، ثم اعقب ذلك اجراءات شجاعة تحدى فيها المقتفي السلاجقة ،

---

(٩) راحة الصدور ، ٢٤٥ •

(١٠) الزهري ، نفوذ السلاجقة السياسي ، ١٤٧ •

(١١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/٧٢ •

(١٢) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/٨٥ •

(١٣) نفسه ، ١٠/١٠٣ •

(١٤) نفسه ، ١٠/٩٦ •

ففي عام ٥٤١هـ ، عندما دخل مسعود السلجوقي بغداد وعمل دارا لضرب النقود ، أمر الخليفة بالقاء القبض على الضراب ، وامر مسعود بالقبض على صاحب الخليفة ، فاضطر الخليفة الى اصدار امر باخراج من في الجامع وغلقه وامر بغلق المساجد فبقيت ثلاثة ايام كذلك ثم تقدموا بفتحها ولم يسلم لهم الضراب واطلق حاجب الباب (١٥) ، وتصرف الخليفة هذا يعتبر ذكيا لانه اراد ان يلجأ الى الشعب في اثارة عواطفه الدينية ضد السلاجقة الذين اضطروا للاذعان لرغبة الخليفة باطلاق سراح الحاجب ، واضطر السلطان مسعود الى مقابلة الواعظ ابن العبادي الذي وعظه وطلب اليه ان يحسن الى الرعية بالمعاملة الطيبة فاستجاب له (١٦) ، ويشكل هذا تحولا جديدا في مسار سياسة السلاجقة التي بدأت باللجوء الى الاساليب الدبلوماسية للحفاظ على نفوذهم والتجرد عن اسلوب العنف والقسوة الظاهرة في السابق ، ثم أمر الخليفة باطلاق سراح المحبوسين وتصدق بعدة اشياء في سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م نفسها (١٧) ، وبدأت الخلافة والناس يشعرون

---

(١٥) نفسه ، ١١/١١٩ .
(١٦) ابن الجوزي ،، ١١/١٢٠ .
(١٧) نفسه ، ١٠/١١٩ .

بالطمأنينة ، اضف الى ذلك ان مسعودا السلجوقي بدأ يشعر بالضعف نتيجة لعلاقاته غير الجيدة مع الامراء ، ففي عام ٥٤٣ هـ ، وردت الانباء بخروج الامراء عليه وقادوا المعارضة فهاجموا شهربان(١٨) ، فهرب الناس منهم حتى شحنة مسعود في بغداد الذي هرب الى قلعة تكريت وقطع الجسر ، وحاول الخليفة المقتفي اقناعهم الا انهم اصروا على موقفهم قائلين : « جئنا لنصلح أمرنا مع السلطان ...» (١٩) ، ثم طلبوا من الخليفة مبلغ ثلاثين الف دينار ليرحلوا عن بغداد ، واستشار الخليفة رجاله الذين اشاروا عليه بتسليمهم المبالغ الا صاحب ديوانه ابن هبيرة الذي اشار عليه بضرورة انفاق هذا المبلغ على الجيش حتى يتمكن من دفع خطرهم وقال للخليفة : « هؤلاء خرجوا عليك وعلى السلطان ، وجاهروا بالعصيان .. وانفق ما عزمت على بذله لهم في عسكر يقاومهم ويدفع شرهم » (٢٠) فوافق الخليفة على ذلك ، ولما قرب السلاجقة من بغداد ، نقل اهل بغداد رحالهم ، ثم ارسل الخليفة رسولا الى السلاجقة وقال لهم على لسان الخليفة : « في اي شيء جئتم .. » وما مقصودكم ؟ فان الناس قد انزعجوا بسبب مجيئكم !

---

(١٨) شهربان : من مدن العراق التي تقع في جهاته الشرقية .

(١٩) ابن الجوزي ، نفسه ، ١٠/١٣١-١٣٢ .

(٢٠) البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢٠٣ .

فقالوا نحن عبيد هذه العتبة الشريفة ...» فوصلوا نواحي بغداد ، فجند الخليفة العسكر واظهر السرادقات والخيم وحفر الخنادق وسد العقود والعسكر السلجوقي ينهبون حوالي البلد ، يأخذون غلات الناس ، فخرج صبيان بغداد يقاتلون بالمبارزة الصوف والمقاليع وقال الغزنوي الواعظ يصف همجية السلاجقة بقوله : «لو جاء الافرنج لم يفعلوا هذا ، أي ذنب لأهل القرى والرساتيق ...» وقبض الخليفة على وزيره ابن صدقة ، وعلى الوزير ابي نصر بن جهير ، اللذين أشارا عليه بدفع مبالغ للسلاجقة ، وفي ١٨ جمادى الاولى جلس الخليفة المقتفي في منظرة الحلبة واستعرض العسكر ، وحفرت الخنادق ببغداد ، ونودي بلبس العوام السلاح ، وان يمنعوا انفسهم واموالهم ؛ وفي ٦ جمادى الاخرة بعث الخليفة ليلا فغلق الباب الحديد من عقد السور مما يلي جامع السلطان ، وبنوا خلفه وسدوه سدا قاطعا، وبعث الامير السلجوقي الى الخليفة قائلا : «لأي شيء سددتم في وجوهنا .. فلم يلتفت الى قوله ..» ودارت رحى معركة عنيفة ، كان الخليفة يقود الجيش بنفسه ، واتصلت الحرب وكان القتال تحت مدرسة قمرية وقتل جماعة من الفريقين ، ثم ارسل الامراء الى الخليفة فاعتذروا فلم يقبل عذرهم ، فاقاموا الى

النيل ، وقالوا : « نحن قيام على رؤوسنا مانبرح أو يأذن لنا أمير المؤمنين ويعفو عن جرمنا » (٢١) ، ووفق جيش الخلافة في اول تجربة للنضال ضد المتغلبين ، وكان لهذا الانتصار أثره في ارتفاع منزلة ابن هبيرة عند الخليفة ، الذي رقاه من صاحب ديوان الى وزير وخلع عليه سنة ٥٤٣هـ (٢٢) ويعتبر هـذا الانتصار العسكري لجيش الخلافة بداية حقيقية لزوال نفوذ الدولة السلجوقية وانهيارها ، واعادة هيبة وسلطان

---

(٢١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٣٢-١٣٣ ٠

(٢٢) وكان ابو القاسم هبة الله بن الفضل البغدادي طبيبـا فاضلا ، وكان معاصرا للحيص بيص وخرجا من جملة عسكر الخليفة فقال هبةالله في الفضل قصيدة منها :ـ

في العسكر المنصور نحن عصابة
مرذولة احسن بنـا مـن معشر
خذ عقلنا من فعلنا في ما ترى
مـن خسـة ورقاعـة وتهـور
تكريت يعجزنا ونحـن نجهلهـا
نمضي لتأخذ مترفداً من سنجر
الحيص بيص مبـارز بقنـاتـه
وأنـا طبيـب العسكر
هذاك لاتخشى لقتـل بعوضـة
وانـا فلا ارخى لـزاه مدبـر
اجـري بمدفعي الدمـاء وسيفه
في الغمد لم يعرض لظفر الخنصر

(الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ١٢٠-١٢١) ٠

الخلافة على العراق ، كما ان دور مسعود السلجوقي في الاحداث تلاشى ولم تتطرق لذكره المصادر بسبب قوة نفوذ الخليفة وسلطانه في تزعمه النضال ضد السلاجقة بشكل عام ، وامر الخليفة باصلاح ما ثلم من السور ، وحفر الخندق ، فغادر الامراء السلاجقة بغداد » (٢٣) ، ثم بدأ الخليفة بالعمل على تكوين جيش نظامي للخلافة ، وتمكن من تكوين جيش مدرب بحيث استعرض في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م افراد ذلك الجيش ، كما امر بحفر الخنادق استعدادا للطوارىء(٢٤) ، واشار ابن القلانسي الى الخطوات التي اتبعها الخليفة المقتفي لامر الله لتقوية مركز الخلافة من الناحية العسكرية حيث قال : « خرج امر الخلافة في سنة ٥٤٣هـ بالشروع في عمارة سور بغداد ، وحفر الخنادق وتحصينها ، والزام الأماثل والتناء والتجار واعيان الرعايا القيام بما ينفق على العمارات من اموالهم على سبيل القرض والمعونة» (٢٥) ، وذكر السيوطي (ت ، ٩١١) ، معلقا على اجراءات الخليفة المقتفي العسكرية واستعداداته لمواجهة السلاجقة ، حيث اشار الى ان سنة ٥٤٣هـ/

---

(٢٣) ابن الجوزي ، نفسه ، ١٠/١٣٣ .
(٢٤) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٣٣ .
(٢٥) ذيل تاريخ دمشق ، ٣٠٢ .

١١٤٨م كانت البداية لانتعاش الخلافة العباسية ، وكان ذلك نتيجة لعجز مسعود السلجوقي عن اخضاع بعض امراء الولايات الذين ثاروا عليه ، فأتاح ذلك الفرصة للخليفة المقتفي لامر الله لاصلاح اوضاع الدولة (٢٦) ، ويبدو ان السلاجقة فوجئوا بقوة المقتفي هذه وشككوا بحقيقة هذا الانتصار العظيم الذي حققته قوات الخلافة ، فعادوا في عام ٥٤٤هـ بقيادة نائب الشحنة وعسكروا على بعد ثلاثة فراسخ من بغداد ، وبعثوا الى الخليفة طالبين اليه ان تكون الخطبة للملك شاه فرفض طلبهم بحزم ، وامر بجمع الجيش وحفر الخنادق واستعدت بغداد لمجابهة المتغلبين ، قال ابن الجوزي : « ودوّن الخليفة وجمع العسكر وحفر بقية الخندق » ، ولما لم يجدوا سبيلا للفساد والعبث انسحبوا من مواقعهم(٢٧) ، وبدأت الشكوك تساور مسعوداً السلجوقي من التحول الجديد في ميزان القوى السياسية والعسكرية ، لذا قرر زيارة الخليفة في بغداد فخرج اليه ابن هبيرة ورجال الدولة « وجلس لهم وطيب قلوبهم فرجعوا مسرورين»(٢٨)، كما انه اكرم وزير الخلافة وارباب

---

(٢٦) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٧٦ .
(٢٧) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٢٨) نفسه ، ١٠/١٣٨ .

الدولة لما زار بغداد في سنة ٥٤٦هـ(٢٩) ، ويبدو أن مسعودا السلجوقي بدأ يشعر بدور ونفوذ الوزير في الدولة وبدأ يظهر لوزير الخليفة الاحترام والتقدير في الوقت الذي لم يكن لوزير الخليفة سابقا مكانة تذكر وكأنه كاتبا للخليفة ، وليس وزيرا صاحب رأي ونفوذ ، وهذا الاحترام يظهر مدى احترام وتقدير مسعود السلجوقي لشخصية الخليفة المقتفي لامر الله الذي قال عنه في وقت سابق ، « ... لقد اجلسنا في الخلافة رجلا عظيما فالله تعالى يكفينا شره » (٣٠) .

وعاد خطر السلاجقة على العراق مرة اخرى وتمكن السلاركرد من الاستيلاء على الحلة وكتب الى مسعود والشحنة وهو بتكريت فلحقا به ثم غدر به فاغرقه ، واشار ابن الجوزي الى ان الخليفة المقتفي جهز جيشا قوامه ثلاثة الاف مقاتل لتتبعهم ، وقاد الوزير ابن هبيرة قوة عسكرية واتجها صوب الحلة ، فهرب الشحنة ودخلت قوات الخلافة العباسية الى مدينة الحلة وحررتها بعد ان طردت منها من بقي من اتباع السلاجقة (٣١) ، وهذا اول انتصار عسكري

---

(٢٩) نفسه ، ١٤٥/١٠ .
(٣٠) ابن طباطبا ، ٣١٠ .
(٣١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٤٨/١١ .

تحققه جيوش الخلافة على جيوش اعدائهـا المتغلبين خارج مدينة بغداد • واتجهت فلول السـلاجقـة المنهزمة نحو واسط وتمركزت بها فتبعتهم قـوات الخلافة بقيادة الخليفة ووزيره وحاصروا واسط من النهر ومن البر وتمكنوا من تحرير مدينة واسط من سيطرة المتغلبين عليها وهرب الطرنطاوي خطليرس الى الشحنكية بواسط ومنها الى الحلة والكوفة(٣٢) • وعادت قوات الخلافة المنتصرة الى بغداد ، واقيمت احتفالات واسعة بمناسبة تحقيـق الانتصار علـى المتغلبين ، واصبح للخلافة مكانة مرموقة ومحترمة في نفوس الناس مما ساعد على تتويج نضالها بالنصر ضد الطامعين والمتغلبين على سلطانها من السلاجقة وغيرهم ، وكانت قوات الخلافة تردع بعنف كل من يحاول تعكير صفو الامن في العـراق ولقـد أدت قوة الخلافة هذه الى احداث انقسـام في صفـوف السلاجقة مما ادى الى انقسامهم على انفسهم حيث اشتعلت الحروب فيما بينهم في الاقاليم الشرقية ، ولم يتمكن مسعود السلجوقي مـن عمل شيء مـع الخلافة بل مع السلاجقة انفسهم ، ويبدو انه انذهل من التطور السياسي الجديد في العراق وانه مرض وتوفي على اثر ذلك ، مما اتاح للخلافـة طريقـا

---

(٣٢) نفسه ، ١٤٨/١١ •

جديدا ساعدها في نضالها ضد السلاجقة اذا ما علمنا قوة شخصية ونفوذ مسعود السلجوقي ، ولقد علق المؤرخون آمالا على وفاة مسعود بالنسبة لمستقبل الخلافة فقال القلقشندي : «مات مسعود ومات بموته سعادة البيت السلجوقي ، فلم ترفع له بعد ذلك راية يعتد بها » (٣٣) . ويقول نظمي زاده :« وضعفت شوكة السلاجقة بموته ، ونشطت الخلافة بعد وفاته ، وكان الباقون عندما يمرون بدار الخلافة يترجلون على ظهور خيولهم ، ويقبلون العتبة بتبجيل واحترام »(٣٤) . ويبدو ان الخليفة اصبح من القوة بحيث كان ينتظر حدوث حادث مفجع للسلاجقة لكي يستغله وبالفعل فانه استغل وفاة مسعود السلجوقي ثم صادر الخليفة دور اصحاب مسعود السلجوقي ببغداد ، واخذ كل ما لهم فيها ثم جهز جيشه استعدادا لما قد يطرأ من تطورات من قبل الامير السلجوقي الجديد(٣٥) . ثم خرج نداء الخليفة في بغداد : « انه

---

(٣٣) القلقشندي ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ج٢ (الكويت ، ١٩٦٤) ٣٧ ، البطريرك اسطفانيوس الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ٥٦ .

(٣٤) نظمي زاده ، كلشن خلفا ، ترجمة كاظم نورس ، (النجف ، ١٩٧١) ١١٦ .

(٣٥) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٤٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ١١/١٦١ ، ابن دحية ، النبراس ، ١٥٧ .

من تخلف من الجند ولم يحضر الى الديوان ويجري على عادته في اقطاعه آبيح دمه وماله »(٣٦) ، ثم عزل الخليفة كل موظف ولاه مسعود السلجوقي ، وعين موظفين عوضا عنهم من قبله (٣٧) ، ثم عين الخليفة امراء وفوض الى كل واحد منهم جانبا من جوانب العراق (٣٨) ، وواصل الخليفة المقتفي لامر الله جهوده لاستعادة هيبة واحترام الخلافة ، فدعم جيشه بعناصر جديدة ، كما زاد في احكامات سور بغداد وخنادقها ، ورتب الولاة في الولايات ، وبعث رجال الاخبار الى مختلف الولايات لموافاته بما يستجد من أمور ، وكان هذا في الوقت الذي انشغل فيه السلاجقة بالحرب فيما بينهم للظفر بالسلطنة (٣٩) . وذكر الذهبي ان الخليفة المقتفي لامر الله انفق على هذا الجيش الذي بلغ تعداده ستة الاف جندي مبلغا من المال قدره ثلاثمائة الف دينار (٤٠) ، فكان ذلك حافزا قويا للجند على بذل جهد اكبر في القتال الى جانب الخليفة ، كما ساعد هذا على انضمام اعداد اخرى الى جيش الخلافة حتى ان الخايفة عندما

---

(٣٦) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٤٧ .
(٣٧) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٧٦ .
(٣٨) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ١٢٩ .
(٣٩) البنداري ، ال سلجوق ، ٢١٥ .
(٤٠) دول الاسلام ، ٢/٦٤ .

أستعرض جيشه لما وردته اخبار بان محمـــد شـاه السلجوقي ينوي مهاجمة العراق كان تعداده قد زاد على اثني عشر الف جندي(٤١) ، وكان اول عمــل عسكري قام به الخليفة ضد السلاجقة لما علم بوفـاة مسعود السلجوقي وكما قال المقريزي : « انه لما بلغ المقتفي موت السلطان مسعود احاط بـداره ودور اصحابه واخذ كل ما لهم » (٤٢) ، ثم طرد الشـحنة السلجوقي ببغداد واخذ داره ودور اصحابه ببغداد ، واخذ كل ما لهم فيها وكل من عنده وديعة لأحد منهم احضرها بالديوان (٤٣) ، وبعث السلطان ملك شاه الى الامير شكاركرد ثم قبض عليه وغرقه واسـتبد بالحلة ، فقاد المقتفي اليه العساكر مع ابن هبيـرة فعبر الشحنة اليهم الفرات ، وقاتلهم فانهزموا ، وثار أهل الحلة بالدعوة للمقتفي ومنعوا الشــحنة مـن الدخول فعاد الى تكريت ، ودخل ابن هبيرة الحلة ، وبعث الجيوش الى الكوفة وواسـط فحرروها(٤٤) ، وهكذا فجأة على اثر وفاة مسعود السلجوقي تبـدأ مرحلة جديدة من مراحل الانتصارات المتلاحقة التي

---

(٤١) نفسه ، ٢/٦٥ .

(٤٢) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٣٤) ٣٨ .

(٤٣) الخضري ، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ، ٤٥٠ .

(٤٤) ابن خلدون ، العبر ، ٣/١٠٦٦ .

حققتها الخلافة بزعامة الخليفة والوزير على السلاجقة والمتغلبين مما ساعد الخليفة على تحقيق مشاريعه ضد السلاجقة ، وبموت مسعود أفل نجم البيت السلجوقي ، فقد خلفه في زعامة السلاجقة سلاطين ضعاف قضوا وقتهم في اللهو واللعب والأدمان على شرب الخمر (٤٥) ، وكانت سلطة ملوك السلجوقيين قد ضعفت فانتهز المقتفي تلك الفرصة وظل يقوي نفوذه في العراق ، حتى أسترد سلطة الخلافة في الولايات الداخلية (٤٦) ، وذلك لان مسعوداً السلجوقي قضى اكثر حكمه في اخماد الفتن حتى تخلص من الخارجين عليه حيث خلا الجو له ، وظل قويا مرهوب الجانب في المناطق الخاضعة لحكم سلاجقة العراق الى ان توفي فضعفت بموته دولة سلاجقة العراق وعادت مسرحا للفتن والحروب الداخلية من جديد ، وصار السلاطين في ايدي الامراء وقواد الجيش واتابكة اذربيجان (٤٧) ، ولما مات مسعود خلفه في سلطنة السلاجقة ابن اخيه

---

(٤٥) علي ابراهيم حسن ، التاريخ الاسلامي العام ، (القاهرة ، ١٩٥٩) ٤٥٧ .

(٤٦) امير علي ، مختصر تاريخ العرب ، (القاهرة ، ١٩٣٨) ٢٩١ .

(٤٧) عبدالمنعم حسين ، سلاجقة ايران والعراق (القاهرة ، ١٩٥٩) ١٣٠ .

ملكشاه بن محمود ، وكان المتغلب على المملكة اميرا يقال له خاص بك ، الذي كان من اتبـــاع مسعود السلجوقي ، وقبض على ملكشاه بن محمود وسجنه ، وارسل الى اخيه محمد بن محمود وولاه السلطنة الا ان محمداً قتله وتخلص منه لانه رأى منه ما يدل على محاولته الاستئثار بالسلطنة (٤٨) ، فصفت امـور السلطنة السلجوقية لمحمد بن محمود السلجوقي ، الا ان المهم في الاحداث أن وفاة مسعود السلجوقي فتحت الطريق لنضال الخلافة الحقيقي من اجــل تحريـر العراق من سيطرة المتغلبين ، وذلك لان مسعودا كان يعد حجر عثرة امام نضال الخلافة ضدهم ، وقد قال الخليفة عند موت مسعود السلجوقي : « لا صبر على الضيم بعد اليوم ولا قوام مع هول هؤلاء القوم »(٤٩)، وابتدأ العمل الجاد من اجل تحرير العراق منهم .

تحرير العراق من سيطرة السلاجقة :

اتجهت سياسة الخليفة المقتفي بعد وفاة مسعود السلجوقي الى تصفية ما تبقى من نفوذ السلاجقة في العراق وتحريره كاملا من سيطرتهم واعادة السيادة العربية اليه ، بعد ان ظل طوال الفترات والعهـود

---

(٤٨) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ٣/٢٣-٢٤ .
(٤٩) البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢١٤ .

السابقة تحت نفوذ المتغلبين وتسلطهم . واهم ما تم تحريره في هذا الشأن هو مدن تكريت وواسط والبصرة والحلة .. الخ من مدن العراق .

تحرير مدينة تكريت :

كانت تكريت لما تزل تحت سيطرة السلاجقة وبعد وفاة مسعود السلجوقي سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م ، وماقام به الخليفة من اجراءات ضد السلاجقة في بغداد نجد أن مسعود بلال شحنة بغداد هرب من الخليفة ، ولجأ الى السلاجقة الذين بها لايزالون يحتلون مدينة تكريت (٥٠) ، وفي العام التالي ٥٤٨هـ/١١٥٣م قرر الخليفة المقتفي لامر الله تحرير تكريت فارسل قوات عسكرية الى تكريت بقيادة ابي بدر ظفر بن الوزير ابن هبيرة وكان معه ترشك المقتفوي ـ وهو من خواص الخليفة ـ في خمسمائة فارس ، وذلك لتحريرها من سيطرة السلاجقة ، وحدث خلاف بين ابن الوزير وترشك الذي ارسل سرا الى مسعود بلال شحنة تكريت السلجوقي قائلا له : « ان اقبض على الذين معي واسلمهم اليك ، فقال له : اذا فعلت ذلك فعلت فعلا مما تشكرني عليه ، فقبض عليهم

---

(٥٠) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٥٢ـ١٥٣ ، ابن الاثير ، الكامل / ١٨٦ .

وسلمهم الى صاحب القلعة واخذ سلاحهم وخيلهم » ، فضلا عن خمسين حملا واخذ صاحب قلعة تكريت مسعود بلال وترشك يهاجمون طريق خراسان ويقطعونه على الناس وكان مسعود بلال من أعوان وأتباع مسعود السلجوقي ويصفه الحسيني : « انه كان سخيف العقل والرأي قليل الدين بعيدا عن الخير ، كان يعتمد اموالا اكثرها خارج عن الشرع بعيدا عن رسوم السياسة المعقودة ، يقصد بذلك اعياش لاماء المقتفي لامر الله ، وكانت المراسلات في الديوان العزيز ترد الى السلطان مسعود بالشكاية منه ، فتارة كان يزجره عن فعله وتارة يمسك عنه ، فحصل في قلب الامام المقتفي لامر الله من ذلك كله وحشة وانطوى على حقد » (٥١) ، ولذلك فانه اراد ان يستأثر بنفوذه ومكانته في تكريت وخاصة بعد ان انضم اليه قائد الخليفة ترشك ، ويفهم من نص للبنداري ان مسعود بلال كان واليا لبغداد في عهد مسعود السلجوقي ، فبعد وفاته « قامت القيامة وتعذرت عليه الاقامة » فاتجه الى الحلة واستولى عليها بعد ان قتل السلار الكردي وبعد هزيمته امام جيش الخلافة لحق بهمدان مستصرخا السلاجقة (٥٢) ،

---

(٥١) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ١٢٩ .

(٥٢) البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢١٤-٢١٥ .

ويبدو انه بعد ان اعد جموعه وجيوشه اتجـــه الى تكريت التي لم تزل خاضعة للسلاجقة ، حيث تحصن بها مسعود بلال واعلن عصيانه وتمرده على الخليفة المقتفي وجهز الخليفة المقتفي جيشا كبيرا قـــاده بنفسه وأتجه الى طريق خراسان فهرب قطاع الطرق من السلاجقة بقيادة مسعود بلال وترشك الى مدينـــة تكريت ، وطاردهم الخليفة وضرب حولها الحصـــار اياما ، وجرت حروب كثيرة بينه وبين السلاجقة من وراء السور وقتل عدد كبير من الناس (٥٣) ، فاضطر الخليفة الى رفع الحصار والاتجاه نحو واسط لدفع خطر ملك شاه السلجوقي عنها ، وبعد ان حررها عاد الى بغداد (٥٤) • قرر المقتفي اللجـــوء الى الاســلوب الدبلوماسي مع السلاجقة في تكريت حيـــث بعـــث رسولا اليهم بقصد اطلاق سراح الاسرى وعلى رأسهم ابن الوزير فغدر السلاجقـــة بالرســـول واودعـــوه السجن (٥٥) ، وعند ذلك بعث الخليفة جيشا الى تكريت وجوبه بمقاومة عنيفة ، الا ان الجيش تمكن من فتح المدينة وهرب اغلب السلاجقة منها ومنهـــم مسعود بلال الا من كان بقلعتها الحصينة ، ودخـــل الجيش

---

(٥٣) ابن الاثير ، الكامل / ١٨٩ •

(٥٤) ابن الجوزي ، المصدر السابق ١٠ط١٥٢ـ١٥٣ •

(٥٥) نفسه ، ١٥٣/١٠ •

البلد » ونصب ثلاثة عشر منجنيقا على القلعة ، ووقع من سورها ابراج ، وبعث صاحب الموصل اليهم رسولا طلب اطلاق سراح الاسرى فرفضوا وظلوا متحصنين بالقلعة (٥٦) ، التي ظل الحصار مفروضا عليها ، وامر الخليفة بالقتال والزحف ، فاشتد القتال وكثر القتلى ، ورغم كل ذلك لم يتمكن جيش الخلافة من فتحها ، فاضطر الخليفة الى سحب قواته نحو بغداد (٥٧) ، انتظارا لتهيئة سبل مهاجمة القلعة تمهيدا لفتحها ، وجهز الخليفة جيشا وطلب من الوزير ان يتولى قيادته لحصار قلعة تكريت من جديد ، حيث أعدت الآلات والوسائل الكثيرة الخاصة بفتح القلاع ، فدخل المدينة ونادى « من تخلف بعد ثلاث أبيح ماله ودمه » وعرض العسكر فكانوا ستة الاف فارس ، فنزلوا الى القلعة ، وبعد ان اوشك ان يفتحها جاء الخبر بان مسعود بلال السلجوقي ومعه امراء السلاجقة قد هاجم شرق العراق ووصل الى شهربان ، فأمر الخليفة بترك تكريت والتوجه لمحاربتهم (٥٨) ، وبعد ان تمكنت الخلافة من القضاء على مسعود بلال ومن معه ، تكون قد تمكنت من

---

(٥٦) نفسه ، ١٠/١٥٦ .

(٥٧) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٩٤ .

(٥٨) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٥٦ .

القضاء على اخطر غزو سلجوقي للعراق والذي حاصر بغداد بقيادة محمد السلجوقي ، بعد كل هذا تفرغت الخلافة للقضاء على بقايا السلاجقة في تكريت ، وتم لها ذلك بتحقيق نصر على السلاجقة فيها ، وتم اطلاق سراح ابي البدر ابن الوزير ابن هبيرة من حبس تكريت ومن معه وذلك في عام ٥٥١هـ(٥٩) ، اي في السنة نفسها التي انتصرت فيها قوات الخلافة على محمد السلجوقي في بغداد ، ولقد أستقبل ابو البدر في بغداد من قبل اخيه مع موكب خاص أعد لاستقباله . يقول ابن الاثير : «وكان يوما مشهودا ، وكان مقامه في السجن يزيد على ثلاث سنوات » (٦٠) .

تحرير واسط والغراف والبطائح :

كانت الخلافة مستمرة في مجابهة المشكلات مع السلاجقة ، وذلك ان مسعود بلال وترشك السلجوقي هاجما مدينة واسط ، وانتهبا ما يختص بوزير الخلافة من الاملاك فارسل الخليفة المقتفي قوة عسكرية بقيادة وزيره ابن هبيرة ، فاصطدم بالقوات السلجوقية التي انهزمت وطاردتها قوات الخلافة ،

---

(٥٩) ابن الاثير ، نفسه ، ٢١٦/١١ .
(٦٠) الكامل في التاريخ ٢١٦/١١ .

وحررت مدينة واسط من سيطرتهم ، وعاد الوزير بعد ذلك الى بغداد « .. حيث شرفه الخليفة بقميص وعمامه ولقبه سلطان العراق ملك الجيوش(٦١) ، غير انه لما حوصرت بغداد من قبل السلاجقة كانت منطقة الغراف تحت سيطرة النفوذ السلجوقي حيث انضم بدر بن المظفر بن حماد الى السلاجقة وارسل اليهم المؤونة والرجال من الغراف وواسط والبطائح(٦٢) . وبلغ من ضعف السلاجقة وقوة الخلافة العباسية ، انه لما بلغ الخليفة تخبيط بواسط سنة ٥٤٧هـ اتجه اليها في النهر فهرب اولا الطرنطاوي خطلبرس الى شحنكية واسط ثم مضى الى الحلة والكوفة وعاد الى بغداد(٦٣) ، كما ان ملكشاه السلجوقي الذي سار الى العراق سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م كعادة من سبقه من سلاطين السلاجقة اضطر الى الانسحاب من مدينة واسط عندما علم بمسيرة الخليفة المقتفي لامر الله اليه ، ولم يجرؤ على الاشتباك معه في قتال (٦٤) ، كما كانت البصرة تحت السيطرة السلجوقية حيث انضم ارغش صاحب

---

(٦١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٥٧/١٠ .
(٦٢) البنداري ، المصدر السابق ، ٢١٢/١١ .
(٦٣) ابن الجوزي ، نفسه ، ١٤٨/١٠ .
(٦٤) البنداري ، ١٥٢/١٠ـ١٥٣ .

البصرة الى السلاجقة وهاجم واسط واخذها، وتمكنت قوات الخلافة من السيطرة مرة اخرى على واسط وتحريرها من سيطرتهم ، وبعد ذلك حظيت بعناية ورعاية الخليفة المقتفي الذي زارها في عامي ٥٥٣هـ و٥٥٤هـ وبعد ذلك اتجه الخليفة المقتفي الى الغراف وولاها ابا جعفر بن البلدي وقبض على ابن مفلح وزير ظفر عاملها وعاقبه بعد أن عزل واليها واعادها لنفوذ الخلافة (٦٦) ، وبذلك تم تحريرها من سيطرة المتغلبين عليها واعوانهم .

حملة الخليفة الى داقوق :

وقاد الخليفة المقتفي الجيش العباسي الى مدينة داقوق عام ٥٥٠هـ وقاتل من بها من المناوئين للخلافة ، ثم غادرها عائدا الى بغداد (٦٧) ، وذلك رأفة بسكانها الذين عانوا من الحصار ، حيث بعثوا اليه طالبين منه ان يرحل عنهم لانهم قد هلكوا من الجيشين «فأجابهم ورحل عنهم » (٦٨) .

---

(٦٥) راجع الفصل الرابع ، الزيارات التفقدية للخليفة .
(٦٦) البنداري ، نفسه ، ٢٦٦ .
(٦٧) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢٠١ .
(٦٨) ابن كثير ، المصدر السابق ، ١٢/٢٣٢ .

تحرير مدينة اللحف :

وجهز الخليفة المقتفي جيشا كبيرا الى بلد اللحف وتمكن من تحريره واعادة ضمه الى العراق الذي انسلخ عنه عام ٥٤٩هـ (٦٩).

تحرير الحلة والكوفة وكربلاء :

كانت الحلة والكوفة تحت سيادة الخلافة العباسية بصورة تامة عام ٥٥٠هـ حينما عاد الخليفة من حملته على بلد اللحف واتجه الى بغداد « ثم خرج نحو الحلة والكوفة والجيش بين يديه » (٧٠) ، الامر الذي يؤكد انضمامها بصورة تامة للسيادة العباسية، الى ان خضعتا الى المتمردين بقيادة مهلهل(٧١) ، الذي انضم الى القوات السلجوقية المحاصرة لبغداد في عام ٥٥١هـ ، وأعيدت السيطرة عليها ، وتم القاء القبض على عدد من المتمردين الذين انضموا الى السلاجقة أثناء محاصرة بغداد وتم اعدامهم وامراؤهم ، وشنقوا وبخاصة الامير حسين المضطرب واخوه ماضي وعدة من رجالهم (٧٢) ، وبذلك تم

---

(٦٩) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/١٩٦ .

(٧٠) ابن كثير ، نفسه ، ١٢/٢٣٢ .

(٧١) ابن الاثير ، نفسه ، ١١/٢١٢-٢١٣ .

(٧٢) البنداري ، المصدر السابق ، ٢٢٨-٢٢٩ .

تحرير مدينة الحلة بصــورة تامــة مــن الســيطرة السلجوقية ، وكذلك مدينتي الكوفة وكربلاء ، وقد زار الخليفة المقتفي كربلاء في عام ٥٥٣هـ ، حيث زار قبر الحسين بن علي رضي الله عنه (٧٣) ٠

تحرير بعقوبة وشهربان :

قرر السلاجقة نبذ خلافاتهم جانبا وتوحيــد كلمتهم ضد الخليفة العباسي المقتفي لامر الله ، في محاولة لاعادة نفوذهم ومكانتهم في الخلافة العباسية، في الوقت الذي كان جيش الخلافة يحاصر السلاجقة في قلعة تكريت ، بقيادة الوزير ابن هبيرة ، وكان مدبر هذا التحالف المعادي مسعود بلال شحنة بغداد السابق ، الذي خرج منها بعــد مــوت مســعود السلجوقي ، وبعد سلسلة من الانكسارات توجه الى همدان لمقابلة محمد السلجوقي وطلب اليه ان يعد العدة للهجوم على الخلافة ، غير ان محمدا السلجوقي رفض طلبه قائلا : « لن تكون لنا طاقة على دفــع الخليفة اذا نهض بنفسه لقتالنا لأن الامراء في مثل هذه الحالة لن يقفوا في وجهه فيجب ان تأذن لواحد من السلاطين المقيمين في تكريت للوقوف لمواجهــة الخليفة » (٧٤) ، وهذا يبــين مــدى ادراك محمــد

---

(٧٣) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٨١ ٠

(٧٤) الرواندي ، راحة الصدور ، ٤٠٧ ٠

السلجوقي لقوة وشخصية الخليفة ومكانته، ويمتدح البنداري رأي محمد السلجوقي هذا بقوله : « وكان السلطان محمد يرجع الى عقل وحلم بسين ورأي رزين » (٧٥) ، وقال محمد لمسعود بلال ولمن اتفق معه من السلاطين السلاجقة محذرا اياهم من مغبة الاستمرار في مسعاهم : « لاتعجلوا فان مخالف الخليفة مشؤوم ومواليه محمود ومعاديه مذموم ، وانا أستقبح سلطتي بمعاداته وفي مناوأته »(٧٦) . الا أن موقف محمد هذا لم يثن الامراء السلاجقة عن عزيمتهم في مواجهة الخليفة وقالوا : « ارزاقنا قطعت واعراقنا قد قلعت ودورنا قد انزلت ، وولاتنا عزلت ولابد من مداواة هذا الداء قبل اغفاله وتداركه قبل استفحاله»(٧٧) ، وقالوا : « ونحن نمضي ونقضي هذا الشغل .. ونلقى بجمعنا الجمع نحصد بسيوفنا الزرع »(٧٨) . واخيرا ذكرهم بسوء فعلهم هذا حينما قال لهم « كان رأيي ما ذكرته وعرفتكم ما انكرته ، والان فافعلوا ما رأيتموه وأعملوا .. فودعوه وركبوا»(٧٩) . ويعلق الحسيني

---

(٧٥) البنداري ، المصدر السابق ، ٢١٦ .

(٧٦) نفسه ، ٢١٦ .

(٧٧) نفسه ، ٢١٦ .

(٧٨) نفسه ، ٢١٦ .

(٧٩) نفسه ، ٢١٦ .

على الجمع الكبير من السلاجقة ، الذي كان تحت سيادة مسعود بلال بقوله : « واجتمع اليهم سائر التركمان وصاروا في عساكر تموج بهم ويستر الغبار وجه السماء ووصل خبرهم الى المقتفي لامر الله»(٨٠) ، وقرر الخليفة المقتفي تدارك الامر وتركت قوات السلاجقة ، فسيطرت على المنطقة الشرقية من العراق واستحوذت على طريق خراسان الذي يربط بغداد بالاقاليم الشرقية ، واخذوا بمهاجمة وسلب كل من يمر على الطريق من الناس والتجار وغيرهم واتجهت قوات الخلافة لمجابهة السلاجقة ، واصطدم العسكران على بكمزا»(٨١) ، بالقرب من بعقوبة في معركة حاسمة سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ، وبادرهم الخليفة بالهجوم حينما عبر النهر اليهم ، واستمرت المعارك ثمانية عشر يوما وتحصن السلاجقة بالخركاهات والمواشي ويقال : « انهم كانوا اثني عشر الف بيت من التركمان » ، واحتدمت المعارك فانهزمت ميسرة الخليفة وجزء من القلب ، وبلغت الهزيمة الى بغداد ، حيث هاجموا

---

(٨٠) الحسيني ، المصدر السابق ، ١٣١ .

(٨١) يكمزا : بالفتح والزاي قرية بينها وبين بعقوبا نحو فرسخين وكان بينها وبين بعقوبة الواقعة المشهورة وتقع حاليا في محافظة ديالى ، راجع الحموي ، معجم البلدان ، (طهران ، ١٩٦٥) ج١/٧٠٦ .

خزانة الخلافة وقتلوا خازن الخليفة يحيى بن يوسف ابن الجزري(٨٢) ، وكان لسلاح الفرسان اثر كبير في تغيير مجرى القتال حينما استمات قادة الخليفة وترجلوا الى الارض ومعهم الخليفة الذي رفع الطرحة من رأسه وجذب السيف ولبس الحديد ومعه ولي عهده ونادى « يا آل مضر ، وفي رواية يا آل هاشم : « كذب الشيطان » وقرأ الاية الكريمة « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا » .

وكان وزيره يشجعه على الثبات والاستمرار بمناضلة المعتدين وقال له : « يا امير المؤمنين قد وقعت العين في العين وقد وصلت سهامهم الينا »(٨٣)، فشجعه على الصمود ، وضم اليه خيرة الرجال من اجل تلافي الامر ومجابهته وجمع قوات مكثفة ومن انحاء شتى وضم اليه عدة قادة امثال المهلهل والامير مؤيدان والامير منكوبرس ، واستقدمت قوات عسكرية من البصرة وواسط والحلة وسائر انحاء العراق ، وكان صاحب واسط الذي قاد قوة عسكرية الامير بدر الدين بن مظفر بن حماد صاحب الفرات والبطايح(٨٤) ، ويعلق

---

(٨٢) ابن الاثير الكامل ، ١١/١٩٥-١٩٦ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/١٥٦-١٥٧ ، الاحزاب ، الآية (٢٥) .
(٨٣) الكازروني ، مختصر التاريخ ، ٢٣٠ .
(٨٤) الحسيني ، المصدر السابق ، ١٣١ .

الحسيني على هذه القوة الكبيرة المتجمعة بقوله : « واجتمع ببغداد عسكر لم يجتمع مثله في وقت من الاوقات » (٨٥) ، واتجهت كذلك قوات الخلافة المحاصرة للسلاجقة في مدينة تكريت ، وانضمت الى قوات الخلافة وذلك بقيادة الوزير ابن هبيرة ، اما بالنسبة للسلاجقة فان مسعود بلال امر باخراج ارسلان شاه بن طغرل بن محمد من قلعة تكريت وكان محبوسا بها ، وقال : « هذا السلطان نقاتل بين يديه بازاء الخليفة » (٨٦) ، واتفقت كلمة السلاجقة جميعا على مقاتلة الخليفة المقتفي لامر الله ، الذي كا قد استعد لهم ، كما ان محمدا السلجوقي في آخر المطاف غير موقفه الحيادي من الخلافة وانحاز للسلاجقة حيث تذكر بعض الروايات انه بعث قوات عسكرية نجدة لمسعود بلال السلجوقي الا ان ارسالها كان متأخرا (٨٧) . ودارت رحى معركة عنيفة مذهلة بين الجانبين كان من نتائجها انتصار تاريخي كبير على السلاجقة ، ولاول مرة يتحقق مثل هذا الانتصار الكبير ، منذ ان بدأت محاولات جادة من الخلفاء لمواجهة السلاجقة ، وشارك في معركة بكمزا التي

---

(٨٥) نفسه ، ١٣١ .
(٨٦) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/١٩٥ .
(٨٧) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/١٩٦ .

قادها الخليفة المقتفي لامر الله جميع قواته ورجاله بمن فيهم الوزير ابن هبيرة الدوري الذي عندما شاهد شدة الموقف وهوله قال للخليفة : « يا امير المؤمنين قد وقعت العين في العين وقد وصلت سهامهم الينا فلم يبق الا ان تناجي ربك فانه منجزك ما وعدك ، فانحاز الى رابية وصعدها ثم استقبل القبلة وكشف رأسه ورفع يده الى الله تعالى داعيا فما استتم الدعاء حتى انهزم العدو ومزق كل ممزق وعاد مظفرا – اي الخليفة – (٨٨) .

وكان من ابرز قادة السلاجقة البقش كون خور، وغيره ، والذي لم يتمكن من الصمود والثبات وهرب وتبعه عسكر الخليفة وعمل فيهم قتلا واسرا (٨٩) ، وحصلوا على غنائم كثيرة جدا ، ويقول ابن الاثير «وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك فبيع كل كبش بدانق » (٩٠) ، وكشف المقتفي عن خلقه الانساني الرفيع حينما امر باطلاق سراح النساء والاطفال الذين أسروا في المعركة ، ذلك لان السلاجقة كانوا قد حضروا بنسائهم واولادهم وخركاهاتهم وجميع مالهم

---

(٨٨) ابن الكازروني ، المصدر السابق ، ٢٢٩–٢٣٠ .
(٨٩) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١١/١٩٥ .
(٩٠) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/١٩٥ .

فأخذ جميعه ونودي : « من أخذ من أولاد التركمان ونسائهم شيئا فليرده ، فردوه » (٩١) ، وبذلك تحقق اعظم انتصار عباسي على الاعاجم منذ تسلطهم على بغداد والعراق .

وقد اشاد المؤرخون بهذا الانتصار العظيم ، الذي عزز من مركز وقوة الخليفة المقتفي ، يقول الحسيني : « وخلص العراق من خبث وفساد مسعود البلالي والتركمان .. »(٩٢) ، والذي هرب واستمرت قوات الخلافة في مطاردة فلول السلاجقة المنهزمة والتي اتجهت الى بلد اللحف ، وتمكنت قوات الخلافة من تحريره ، واتجهت فلولهم الى ايران شرقا حيث مات البقش ، واتجه ارسلان الى زوج امه ايلدكز فصار معه رغم محاولات محمد السلجوقي بجعله معه ، ويبدو ان قسما من المنهزمين اتجهوا الى محمد السلجوقي الذي عاتبهم قائلا(٩٣) « كسرتم واقلقتم أنفسكم واهلكتم التركمان ، وعرضتم للسبي الذراري منهم والنسوان ثم اخرجتم الملك ارسلان وغفلتم عن حفظه » (٩٤) ، ويبدو أن محمدا قد ندم

---

(٩١) نفسه ، ١١/١٩٥ .

(٩٢) الحسيني ، المصدر السابق ، ١٣٣ .

(٩٣) ابن الاثير ، نفسه ، ١١/١٩٦ .

(٩٤) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/١٩٦ .

على تصرفه المتأخر والذي كان في غير صالحه حينما ارسل قوات لنجدة السلاجقة ، ويروي ابن الاثير ان محمدا ارسل عسكرا مع خاص بك من اقسنقر نجدة للبقش كون خور ، فلما وصلوا الى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعادوا (٩٥) .

وكان لانتصار الخلافة هذا اثره الفاعل في ارتفاع عزم الخليفة ورجاله في مواصلة نضالهم للسلاجقة وكبح جماحهم ، ووضع حد لتسلطهم على شؤون الخلافة العباسية ، كما كشفت عن مدى اتحاد العراقيين وتعاونهم تحت قيادة الخليفة ، وان هذا الاتحاد اثر في تشتيت وحدة السلاجقة وانقسامهم على انفسهم حتى ان محمدا السلجوقي كان يخشى من اتجاه الملك ارسلان الى ايلدكز بسبب الخلاف الشديد بينهما ، وفعلا فانه اضطرب بعد اتجاهه اليه حيث قال محمد للسلاجقة الذين اندحروا امام جيش المقتفي : « ثم اخرجتم الملك ارسلان وغفلتم عن حفظه وهو الآن عند ايلدكز وستبصرون ما يفضي اليه الامر ولابد من ان يتوجه الى من جانبه الشر وقد صار الخليفة خصما فلا يخلص بعد هذا .. »(٩٦) .

---

(٩٥) البنداري ، المصدر السابق ، ٢١٩ .

(٩٦) البنداري ، المصدر السابق ، ٢١٩ .

ولذا فان لانتصار الخلافة سالف الذكر اثـره البارز في احداث الشقاق والخلاف بين السلاجقـة اضف الى ذلك ان الاحداث كشفت عدم اخـلاص السلاجقـة للخلافة العباسـية وبالاخص محمـد السلجوقي الذي ظل ملتزما بموقف محايد حتى آخر لحظة حينما غير موقفه وانحاز للسلاجقة ٠

انتصار الخلافة على السلاجقة في بغداد عام

٥٥١ ـ ٥٥٢هـ / ١١٥٦ ـ ١١٥٧م

استغل الخليفة المقتفي حالة الانشقاق والخلاف بين اعدائه السلاجقة لكي يتمكن مـن ضربهـم منفردين ، وشجع اولئك الخارجين علـى الاميـر السلجوقي فعندما انتصر على قوات سلمه السلجوقي عام ٥٥٠هـ/١١٥٥م واسر عددا من وجوه السلاجقة نجده قد احسن اليهم واكرمهم ثم قبل عذر شملة السلجوقي وسرحه لمحاربة ملك شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه وطرده من المناطق الممتدة ما بين احواز واواسـط البصرة الى اقليـم فـارس ، واستولى عليها (٩٧) ٠ كما ان الخليفة بان له ضعف سليمان شاه الذي كان مطاردا من قبل السلطان السلجوقي

---

(٩٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/١٦١ ٠

محمد شاه ابن اخيه محمود بن محمد والـذي سـير عليه جيشا ، فهرب من قاشـان (٩٨) ، الى عربستان الحالية فمنعه ملكشاه عنها ، فاتجـه الى اللحـف ونزل البدنجين (٩٩) ، ومن هناك ارسل الى الخليفـة رسولا يخبره بوصوله وترددت بينهما الرسل ، ولكي يضمن الخليفة عدم مخادعة سليمان شاه فأنه استقر على ان يرسل زوجته رهينة فارسلها الى بغداد مع كثير من الجواري والاتباع وقال « قد ارسلت هؤلاء رهائن فان اذن أمير المؤمنين في دخول بغداد فعلت والا رجعت » ، وتلمس من هذا النص ان الخليفـة اصبحت له مكانة مرموقة جدا امام اعدائه السلاجقة، ويمكن ان يقارن المرء بين هذا الوضـع والوضـع السابق حين كان سلاطين السلاجقة يدخلون قصـر الخلافة وليس بغداد بكل حرية ويسر . ودخلت زوجة السلطان ومن معها على الخليفة فاكرمهم ، وبعد ذلك اذن الخليفة لسليمان السلجوقي بالقـدوم الى بغداد وعند مقدمه لم يحتفل الخليفة له على خلاف العادة الجارية في اسـتقبال السـلاجقة . ويعلـق

---

(٩٨) قاشان : مدينة قرب اصفهان تبعد عنها ثلاث مراحـل (البغدادي ، مراصد ، ٣/١٠٥٧) .

(٩٩) البندنجين : بلدة مشهورة في طرق النهروان وهي كثيرة الزرع والخيرات (البغدادي ، نفسه ، ١/٢٢٥) .

(١٠٠) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٦١ .

الذهبي على ذلك بقوله « .. ولم يحتفل لمجيئه لتمكن الخليفة وقوة دولته وكثرة جيوشه وهيبته » (١٠١) ، فقدم سليمان ومعه جماعة يبلغون ثلثمائة رجل ، فخرج عزالدين محمد ولد الوزير ابن هبيرة ومعه قاضي القضاة والنقيبان وقال له : « امير المؤمنين صلوات الله عليه يسلم عليك ويهدي تحيته اليك(١٠٢) وحينما وصل الى الباب النوبي انزلوه والزموه بتقبيل العتبة ، وقال البغدادي معلقا على الحادث « وما قبل تلك العتبة قبل سليمان سلطان سلجوقي ولا ملك ديلمي وكان منهم شقي وسعيد »(١٠٣) ، وهذا تحول خطير في مجرى العلاقات السياسية بين الخليفة المقتفي والسلاجقة الذين لمسوا فعلا قوة وهيبة الخلافة وسعة نفوذها، وحينما دخل بغداد خلع عليه الخليفة وقد احضر قاضي القضاة والشهود واعيان العباسيين ، وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وأنه لايتعرض الى العراق بحال(١٠٤) ، لكنهم لم ينعتوه الا بالمعظم ولم يسموه بالسلطنة ، وكانوا يقتصرون به على المعظم ، وذلك غاية ان

---

(١٠١) العبر ، ١٤٢ .

(١٠٢) دولة آل سلجوق ، ٢٢٠ .

(١٠٣) البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢٢٠ ــ ٢٢١ .

(١٠٤) ابن الاثير ، الكامل ، ١١/٢٠٦ــ٢٠٧ .

يعظموه»(١٠٥) ، ولقبه الخليفة القاب ابيه غياث الدنيا والدين وخلع عليه (١٠٦) ، ثم انه قـدم للمقتفـي عشرين الف دينار ومائتي كـر (١٠٧) ، ذلـك لان الخليفة قرر انه ليس في العراق شيء(١٠٨) .

ولذا فان الخليفة تمكن ان يكسـب سليمان السلجوقي الى جانبه ليضرب به السلاجقة وجهـزه بثلاثة الآف فارس وجعل الامير قويدان صاحب الحلة اميرا معه ، واتجه نحو رانية (١٠٩) ومنها الى بـلاد الجبل ، وكاتب ملكشـاه بن محمود أخي السلطان محمد صاحب همدان فحلف كل منهما لصـاحبه ، وجعل ملكشاه ولي عهد لسليمان شاه « وقواهمـا الخليفة بالمال والاسلحة وغيرها » فاتجهوا جميعا في جمع كبير (١١٠) ، ولما علم بذلك السلطان محمـد ارسل الى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائب زين الدين يطلب منهما المساعـدة والمعاضـدة ، فانضموا اليه لانه اغراهم بوعوده باعطائهم الاموال

---

(١٠٥) البغدادي ، المصدر السابق ، ٢٢١ .
(١٠٦) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٢٠٦/١١ .
(١٠٧) الكر : وحدة مكيال = ٢ر٩ طن تقريبا (انظر فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان ، ٧٠) .
(١٠٨) الذهبي ، العبر ، ١٤٢/٤ .
(١٠٩) رانية : مدينة عراقية تقع شمال شرق العراق .
(١١٠) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٠٦/١١-٢٠٧ .

ووقعت الحرب بين الجانبين ، فانهزم سليمان شاه ومن معه ولم يصل من عسكر الخليفة سوى خمسين رجلا من اصل ثلاثة الاف رجل ، واتجه سليمان شاه الى بغداد على طريق شهرزور(١١١) ، فخرج اليه زين الدين في جماعة من عسكر الموصل حيث القي القبض عليه وأسر واخذ الى قلعة الموصل وسجن فيها (١١٢) .
وكان انتصار السلاجقة هذا قد عزز من مركز السلطان محمد السلجوقي الذي اخذ يحرض السلاجقة عامة على الخليفة المقتفي لامر الله ، ووصل به الغرور والاعتداد بنفسه وقوته انه كتب في سنة ٥٤٩هـ الى مسعود بن بلال طالبا اليه مهاجمة بغداد واحتلالها الى حين وصوله ولحاقه بهم(١١٣) ، وقد كتب اليه علي كوجك امير الموصل قائلا له « اذا اردت ان تقصد بغداد فأنا الحق بك(١١٤) ، وفعلا تقدمت قوات السلاجقة وحلفاؤهم حيث احتلوا بعقوبا (١١٥) ، كما ان بدر ابن المظفر بن حماد الذي سيطر على العراق قد انضم الى السلاجقة وكان يرسل لهم المؤونة والرجال من

---

(١١١) شهرزور : سهل وكورة في شمال شرقي العراق .
(١١٢) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢٠٧ .
(١١٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/١٥٨ .
(١١٤) نفسه ، ١٠/١٦٥ .
(١١٥) نفسه ، ١٠/١٦٥ .

الفرات وواسط والبطائح فضلا عن عدد من الامراء الذين انضموا اليهم (١١٦) • كما ان ارغش الـذي سيطر على البصرة استولى على واسط ايضا واستولى مهلهل على الحلة فاخذها (١١٧) ، ولـم ينضـم الى الخليفة الا امير واسـط خطليرس(١١٨) ، وكـان انضمامه للخلافة قد ترك واسط فريسة امام ارغش صاحب البصرة وبعد ذلك اتجهت قوات السلاجقـة بقيادة السلطان محمد السلجوقي الذي لحـق بهـم واتجهوا صوب بغداد وهم مصممون على القضاء على المقتفي الذي اذلهم وأهانهم فنزلوا مـن جانب بـاب الشماسية وارسل الى المقتفي خطابا في محاولة لخدع الخليفة حيث أظهر فيه الطاعة له ، ويذكر الحسيني انه ارسل الى المقتفي وذكر انه « عبدالطاعة وانـه ليس له مقصود بمجيئه الى بغداد الا ان يعود عنها ، وقد علم ملوك الاطراف ان امير المؤمنين عنه راض وانه يسعد بامارة الرضى عنه وهو ان يذكر اسمه على المنابر تلو اسم امير المؤمنين ويعود عن بغداد ، ولا يكون له فيها وال ولا صاحب يشار اليه ، واجتهد ان يشير عليه بامرين غير فقال فيما أجابوه عـن

---

(١١٦) البنداري ، المصدر السابق ، ٢٢٨ ـ ٢٢٩ •
(١١٧) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢١٢-٢١٣ •
(١١٨) نفسه ، ١١/٢١٢ •

مراسلاته بشيء ، ولا حال يسكن اليها سوى ما قالوا له : انك تعود الى همدان وتقيم فيها الى ان ندبر امرك »(١١٩) . غير ان الخليفة لم يلتفت الى ذلك الخطاب بل ولم يستكن لمراسلات محمد السلجوقي وطلباته ، حيث ظل ملتزما جانب الشدة والصمود ضدهم ، رغم صعوبة موقف الخلافة ، لان الجيش السلجوقي حاصر الجانب الشرقي من بغداد بصورة سريعة ومفاجئة ، ويبدو أن الخلافة لم تكن تتوقع وصول جيوش السلاجقة بهذه السرعة لمحاصرة بغداد .

الحرب ... والانتصار في بغداد :

واستعدت بغداد لمجابهة الحصار السلجوقي فارسل الخليفة في طلب النجدة من الامراء فاقبل خطلبرس من واسط ، وانضم ارغش الى السلاجقة واستولى على واسط في الوقت الذي حدث تمرد بمدينة الحلة (١٢٠) ، وبرع الخليفة في مواجهة الحصار السلجوقي للتخلص منه ، وجمعت السفن وقطع الجسر ، ونقلت الاموال الى حريم دار الخلافة ، وضرب الخليفة المناطق التي يوجد فيها السلاجقة

(١١٩) الحسيني ، المصدر السابق ، ١٣٤ .
(١٢٠) الحسيني ، المصدر السابق ، ١٣٤ .

حيث ضرب مناطق وجودهم في قصر عيسى والمربعة ، والقوية ، والمستجدة والنجمي ، ونهب اصحابه ما وجدوا فيها ، في حين خرب السلاجقة نهر القرابين والتوثة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا وتمكن اهل الكرخ وأهل باب البصرة من الخروج الى عسكر محمد السلجوقي واستولوا على اموال كثيرة » (١٢١) ، وبدأت الساعات تقترب من حرب عنيفة بين الجانبين • وذكر ابن الجوزي استعدادات الخلافة لمجابهة الخطر السلجوقي بقوله : « ولبس الناس السلاح ••» وفرق الخليفة عليهم الاسلحة (١٢٢) •

كما رتب الخليفة المدافعين عن اسوار بغداد المحصنة تحصينا قويا ، وكان رجال الحرس يطوفون في انحاء المدينة لحث الناس على المشاركة في الدفاع عن مدينتهم ، ولم يصل الجيش السلجوقي الى بغداد في سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م الا وكان الخليفة قد هيأ الرأي العام للمعركة ضد السلاجقة لدرجة ان العامة كانوا ضمن جيش الخلافة في قتاله ضد المعتدين(١٢٣) ، وكان السلاجقة في غاية الاستعداد واتجهت قواتهم بقيادة محمد شاه وزين الدين علي

---

(١٢١) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢١٣ •
(١٢٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/١٦٩-١٧٠ •
(١٢٣) البنداري ، ٢٢٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ٣/٥١٩ •

كوجك وجاءوا في نحو من ثلاثين الف مجفجف فوقفوا عند الرقة ، واخذوا يهاجمون بالنشاب ناحية التاج ، ورد عليهم سكان بغداد ، وكان صبيان بغداد يعبرون اليهم بالمقاليع وزاقات القسار فيردون العسكر السلجوقي ويصدون النشاب بميازر الصوف ، وكان القتال تحت قمرية وقصر عيسى (١٢٤) .

ولعل من أبرز المؤرخين الذين وصفوا معركة بغداد هو المؤرخ ابن الجوزي ونورد جانبا من تلك التفاصيل التي اوردها وكمايلي (١٢٥) :

١ ـ توجه محمد شاه السلجوقي نحو بغداد لمهاجمتها ، فوصل الى ناحية بعقوبة ، فانزعجت بغداد .

٢ ـ بدأ الهجوم السلجوقي على بغداد ابتداءا من ١٦ محرم وحتى ٢٣ ربيع الآخر .

٣ ـ امر الخليفة بنقل اموال الناس الى دار الخلافة وذلك لحمايتها من النهب السلجوقي ونودي ان لا يقيم احد بالجانب الغربي ، فأجفل الناس واهل السواد .

٤ ـ قام محمد شاه السلجوقي بمهاجمة ونهب منطقة اوانا .

---

(١٢٤) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٦٩ـ١٧٠ .

(١٢٥) انظر ، المنتظم ، ١٠/١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ـ١٧٥ .

٥ ـ لبس الناس السلاح فاخرج الخليفة سبعة الاف جوشن ففرقها ونصب المجانيق والعرادات ، واقام اربعين شقاقا يعملون بالخشب لعمل التراسي والمجانيق والعرادات فكانت مائتين وسبعين عرادة ومنجنيقا في كل عرادة اربعون رجلا .

٦ ـ اذن للوعاظ في الجلوس للوعظ وللحث على الجهاد .

٧ ـ جاء محمد شاه السلجوقي وحلفاؤه في نحو ثلاثين الف مقاتل سلجوقي .

٨ ـ كان صبيان بغداد يعبرون اليهم بالمقاليع وزاقات النار فيردون العسكر الكثير ، ويتلقون النشاب بميازر صوف .

٩ ـ ضرب الصبيان اميرا سلجوقيا بقارورة نفط فرمت به الفرس فقتلوه وقعد القوم له في العزاء ونهب عسكر القوم .

١٠ ـ ركب عسكر الخليفة يقاتلون والنشاب يقع عليهم مثل المطر .

١١ ـ انقطعت صلاة الجمعة من الجانب الغربي .

١٢ ـ وصلت الانباء بمجيء سفن اليهم من الحلة ، وجاءتهم سفن من واسط فاقامت في المدائن ،

ووصل لهم من الموصل كلك عليه دقيق وسكر وعسل وسمن ونعل للخيل وغير ذلك فاخذه اصحاب الخليفة .

١٣ــ كانت الريح شديدة فرمى صبيان بغداد انفسهم في الماء سبحوا فصعد منهم نحو خمسين بأيديهم السيوف والمقاليع والنشاب وكان يوما مشهودا .

١٤ــ وفي يوم الجمعة ١٦ صفر جرى قتال عظيم ووقع النفير في بغداد .

١٥ــ نودي من الديوان بحمل السلاح فحمله العوام والتجار والرؤساء ولبسوا ثياب الحرب .

١٦ــ في يوم الاثنين ١٦ صفر ، اتصل القتال واستمر .

١٧ــ نصب الاعداء عرادة فرماها المنجنيق فكسرها .

١٨ــ تعذر على اهل بغداد الشوك والتبن والعلف ، فبيع الشوك كل باقة بحبة(١٢٦) ، ورأس الغنم بسبعة دنانير .

---

(١٢٦) الحبة : تساوي الحبة الواحدة ١/ ١٠٠ من المثقال اي = ٠٤٤٦ر٠ د ٠ غم ، وتعتبر الحبة وزن عملة لا وزن بضاعة ، ويمكن تحديد الحبة مقربا قدره (٠٥٠ر٠) ما لم يكن الامر يتعلق باوزان عملية مغايرة (هنتس ، الاوزان والمكاييل ٢٥ــ٢٦) .

١٩ـ سد الخليفة الجسر .

٢٠ـ في يوم الخميس ٢٠ ربيــــع الاول جــاءوا بالسلالم التي عملوها وكانت اربعمــائة سـلم طوال ليضعوها على السور فلم يقدروا .

٢١ـ في يوم الجمعة ٢١ ربيع الاول لـم يجـر الا قتال يسير ، ولم يصل الناس الجمعة لثلاث جمع متواليات .

٢٢ـ في يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الاول نادى الحراس في الدروب والاسواق من اراد الجهـاد فليلبس السلاح ويقصد السور فخرج الخلق وجاء العدو معه بالسلالم والمعاول والزبل لسد الخنـدق وخرج الناس واقتتلوا .

٢٣ـ في يوم الخميس ٢٧/ربيع الاول : نادوا فـي معسكرهم لايتأخرن احد عن الحرب وعبر العسكر الذين جاءوا بالجانب الغربي ، وجاءوا باجمعهم وافترقوا ، وفتحت الابواب ووقع القتـال الى المغرب .

٢٤ـ في يوم السبت ٢٩ ربيع الاول : نادوا اليوم الحرب العظيم فلا يتأخرن احد فخرج الناس فلم يجر قتال .

٢٥ـ وكان الضعفاء يعبرون فيجلبون علفا وحطبا فيبيعونه ويعيشون بثمنه وربما حشوا فيه اللحم والتفاح والخضرة ففطنوا بهم فمنعوهم .

٢٦ـ فلما كان يوم السبت ٧ ربيع الآخر عبس الضعفاء الذين كانوا يجلبون الحطب والعلف على عادتهم فحسرهم كوجك السلجوقي وجمع منهم جماعة وتقدم بقطع اذانهم وخرم آنافهم ففعل بهم ذلك فعادوا ودماؤهم تسيل فجاءوا يستغيثون تحت التاج فتقدم الخليفة بمداراتهم وقسم فيهم اموالا .

٢٧ـ بعث محمد شاه الى كوجك السلجوقي يقول له : «انت وعدتني بأخذ بغداد فبغداد ما حصلت .. وأخذ مالي بها وخربت بيوت أصحابي وانا معول على المضي ، فقال له متى رحلت بغير بلوغ غرض كنت سبب قلع بيت السلجوقية الى يوم القيامة ، ثم لا يقصدونك بل يقصدونا ايضا ، ولكن اصبر حتى نجد الجسر ونعبر .. ونحمل حملة واحدة فناخذ البلد» .

٢٨ـ في يوم الجمعة ٢٠ ربيع الآخر جرى قتال على قمرية وهي سابع جمعة تعطلت فيها الصلاة .

٢٩ـ وفي ليلة السبت ٢١ ربيع الاخر هاجم العيارون طوالع العسكر السلجوقي وقتلوا منهم وانتهبوهم .

ونهب عسكر السلاجقة بالجانب الغربي ، وكان الخليفة يقود الجيش العباسي ومعهم العرادات واقوات الجرح يقاتلون والنشاب يقع عليهم مثل المطر ، واستحوذ السلاجقة على جانب دجلة وخرج اليهم عسكر الخليفة في السفن ، ومنعهم السلاجقة وجرى قتال عظيم ووقع النفير ببغداد (١٢٧) ، ونودي في منتصف محرم سنة ٥٢٣ هـ ان لا يقيم احد بالجانب الغربي فأجفل الناس واهل السواد ، ثم نقلت الاموال الى حريم دار الخلافة (١٢٨) ، الامر الذي يكشف مدى صعوبة الموقف الذي كانت تواجهه الخلافة العباسية حينئذ ونودي من الديوان بحمل السلاح فحمله العوام والتجار والرؤساء ، وتذكر الاخبار ان الرياح كانت شديدة وتمنع السفن من الصعود « فرمى صبيان بغداد نفوسهم في الماء وسبحوا فصعد منهم نحو خمسين بايديهم السيوف والمقاليع والنشاب» (١٢٩) . وكان يوما مشهودا ، واستعملت قارورات النفط بالالات وتعسرت الاوضاع الاقتصادية في بغداد وارتفعت الاسعار فيها بسبب الحصار المفروض من قبل السلاجقة، يقول ابن الجوزي

---

(١٢٧) نفسه ، ١١/١٦٩ ١٧٠ .

(١٢٨) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢١٣ .

(١٢٩) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٧٠-١٧١ .

« وتعذر على اهل بغداد الشوك والتبن والعلف فبيع الشوك كل باقة بحبة ، ورأس الغنم بسبعة دنانير» ، وكان اهالي بغداد يدافعون ببسالة وبطولة متناهية ، حيث أنهم كانوا مستميتين في جهادهم للسلاجقة (١٣٠) ، وبسبب شدة القتال فأن صلاة الجمعة كانت لا تقام على حد قول ابن كثير (١٣١) . ويقول ابن الجوزي « ان هذه الجمعة الثالثة من الجمع التم لم يصل فيها الجمعة ببغداد وغير جامع القصر وعطل باقي الجوامع » (١٣٢) ، ذلك ان رجال الطرفين كانوا يتبارزون كل يوم ويتقاذفون بالاحجار ويطارد بعضهم سفن بعض ، وكان الرجالة يخرجون من المدينة ويقاتلون مشاة الجيشين ولم يخرج الجيشان باجمعهما في اي يوم من الايام للقيام بالحرب (١٣٣) ، وتتحدث المصادر عن شجاعة اهالي بغداد وبطولاتهم ، يقول ابن الاثير « ... ولم تزل الحرب في اكثر الايام ، وعمل السلطان محمد اربعمائة سلم ليصعد الرجال فيها الى السور ، وزحفوا وقاتلوا ففتح اهل بغداد ابواب البلد وقالوا

---

(١٣٠) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠-١٧١ ، ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢١٤ .

(١٣١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٣٦ .

(١٣٢) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠/١٧١ .

(١٣٣) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ، ٣٨٣-٣٨٤ .

أي حاجة بكم الى السلالم ؟ هذه الابواب مفتحة فادخلوا منها فلم يقدروا على ان يقربوها ٠٠»(١٣٤) ، واتخذ الخليفة اجراءات لمعالجة الوضع الاقتصادي من جراء الحرب والحصار الشديد وقلت في عساكر الجند بعض الاقوات ، وكانت الغلات توزع على الجند عوض الدنانير فيبيعونها فلم تزل الاسعار عندهم رخيصة ، الا ان اللحم والفاكهة والخضر قليلة عندهم» (١٣٦) ٠ غير انه لما اشتد الحصار على بغداد، لانقطاع المواد عنهم وعدم المعيشة لاهلها الا ان المقتفي فرق الاموال والغلة الكثيرة ونهض أتم نهوض حتى ان بعض الزجاجين عمل ثمانية عشر ألف قارورة للنفط لاستخدامها في مهاجمة السلاجقة (١٣٧) ، وذلك من اجل الحد من ازمة اقتصادية بسبب الحصار المفروض على بغداد ، كما أن الخليفة المقتفي كان كما ذكر البنداري « يخاف الغلاء ٠٠ واقتصر للاجناد في الاعطيات ، على تفريق التمور فيهم والغلات ٠٠ واخذوها واحتاجوا الى أثمانها في النفقات فرموها في الاسواق وباعوها بالدنانير فخمد بذلك نار الاسعار ، وما زاد سعر في

---

(١٣٤) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٢٤/١١ ٠
(١٣٥) نفسه ، ٢١٤/١١ ٠
(١٣٦) نفسه ، ٢١٤/١١ ٠
(١٣٧) الذهبي ، العبر ، ١٤٥/٤ ٠

الأقوات ولا غلا مطعوم في وقت من الاوقات » (١٣٨)، وذكر ابن الجوزي ان الخليفة المقتفي كان يخرج كل يوم من الخزانة اكثر من مائة كر (١٣٩) .

وكانت هذه الاجراءات الاقتصادية تتخذ في الوقت الذي كانت فيه الحرب مشتعلة بين الجانبين وقد كان الخليفة ووزيره يشجعان المدافعين على الصمود والقتال بزيادة مكافأة الذين يعملون ويجرحون في الحرب ، فكان لذلك العمل اثره الايجابي في تقوية وتشجيع عزائم اهالي بغداد وزيادة بطولاتهم (١٤٠) .

واستغل الخليفة المقتفي مسألة الخلاف بين السلاجقة وحلفائهم لكي ينهك قواهم ويضعفهم ، ولذا فان كتبه ورسله كانت ذاهبة الى جميع اصحاب

---

(١٣٨) البنداري ، المصدر السابق ، ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(١٣٩) المنتظم ، ١٠/١٦٩ .

(١٤٠) فعلى سبيل المثال يذكر ابن الاثير ان الخليفة امر مناديه ، فنودي كل من جرح فله خمسة دنانير فكان كلما جرح انسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير ، فاتفق ان بعض العامة جرح جرحا ليس بكبير فحضر يطلب الدنانير فقال له الوزير ، ليس هذا الجرح بشيء ، فعادوا للقتال فضرب فانشق جوفه وخرج شيء من شحمه ، فحمل الى الوزير فقال : يا مولانا الوزير أيرضيك هذا ؟ فضحك منه واضعف له ورتب له من يعالج جراحته الى ان برىء (الكامل في التاريخ ، ١١/٢١٤) .

الاطراف المجاورين للسلطان السلجوقي محمد ، ويحثهم على مهاجمة بلاد محمد السلجوقي » واقطع كل صاحب طرف ما يليه منها فتحرك اصحاب الاطراف » (١٤١) ، وان وزير الخلافة منذ دخول محمد السلجوقي ومحاصرته لبغداد كان يراسل اتابك شمس الدين ، ويحثه على الاتحاد مع ملكشاه وارسلان شاه لمهاجمة املاك السلطان محمد السلجوقي وبالاخص مدينة همدان (١٤٢) ، كما انه راسل الامراء السلاجقة سرا وبعث اليهم التحف والمنح والدنانير من أجل اغرائهم للدخول في طاعة الخليفة ومحاربة محمد السلجوقي (١٤٣) .

---

(١٤١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، ١١٤ .

(١٤٢) البنداري ، المصدر السابق ، ٢٣١ .

(١٤٣) يقول الحسيني : « ان الوزير ابن هبيرة كان يراسل الامراء السلطانية في السر وينفذ لهم التحف والمنح والدنانير ويظهر لهم ان هذه عن العلوفة التي يجب انفاذها اليهم ومع تعذر انفاذ ذلك يكون هذا القدر عوضا عنه ويشير عليهم ان النصح لامير المؤمنين هو على كل مسلم من الامور الواجبة في دين الاسلام والانتهاء الى طاعته لازم له في نص القرآن والمعاندة والمعائدة له تفضي الى سخط الله تعالى وعقوبته والحق ظاهر مشهور واتباعه واجب والباطل زاهق مدحور ، واجتنابه لازم وانتم اعوان السلطان وامراؤه واحق من محضه النصيحة ، وقد ترددت

وقرر محمد شاه السلجوقي وكوجك ان يقاتلا حتى الموت ، وقالا : « وأي شيء وبغداد عندنا ونصبوا الجسر(١٤٤) » واشتد القتال وعمل السلاجقة جسرا على دجلة للعبور على جيش الخلافة وبدأوا بالعبور فصادف هبوب رياح عاصفة فازدحموا على الجسر فسقط بهم ، ولما رأى اهل بغداد هذا الوضع المزري للسلاجقة فتحوا ابواب البلد

ما قد اقدم عليه من المجاهرة لامير المؤمنين من العصيان واصر عليه من المنابذة والطغيان والمشاحنة في بغداد وهي دار الخلافة ومقر الائمة الاطهار من اهل بيت رسول الله (ص) مع كون البلاد عليه متسعه والمماليك بيده كثيرة الاموال له وافرة واذا خاطب نحوه بخطاب يفضي الى الى رحيله عن بغداد في هذه المرة الى ان يتيقن امير المؤمنين حسن ادبه في الخدمة وحينئذ يبلغ مراده ويسعفه بمطلوبه حل ذلك عند امير المؤمنين تلكم احسن محل وعند الله سبحانه وتعالى رقي منزلته ، وبعد فان امير المؤمنين لا يزال يواصلكم باحسانه ويمدكم ببره وامتنانه على القرب والبعد ، واذا أتم لهذا ما يريده من الاستيلاء على بغداد والعراق لا تبقى له حاجة الى مساعدتكم ولا مؤازر يكون آخر استغنائه عنكم فتبقون عنده بعين الاستغناء عنكم ملحوظين في ثياب الندم سادرين وتفوتكم صلات امير المؤمنين ومباره في كل آوان ويعمكم من الله البلاء والخذلان» (الحسني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ١٣٥-١٣٦) .

(١٤٤) ابن الجوزي ، المنتظم ١٠/١٧٤ .

« ونادوا بشعار امير المؤمنين ونصره ... وهجم الحق على الباطل بالابطال ومن حصل منهم في الجانب الشرقي لا طريق له الى الجانب الغربي ، فتقحم البغداديون على الدار السلطانية واجلوهم عنها وأبعدوهم منها ودخلوها ونهبوا ما فيها من الاموال المودعة والاثقال المجمعة » .

وروي عن بعضهم قوله : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي وكان المقتفي يشكو اليه ، وقد وعد بالنصر ، فما مضى بعد المنام غير ايام حتى هزم الله جمع محمد شاه »(١٤٥) . ولذا فحينما وقعت الهزيمة بهم ، اختلف السلاجقة مع بعضهم ووقعوا في ضائقة اقتصادية ذلك لان الميرة التي كانت تأتيهم بالسفن من حليفهم حاكم الموصل قد قطعت عنهم لان اهل الموصل بعد ذلك امتنعوا عن ارسال الميرة الى المعتدين السلاجقة ، كما ان امدادات المؤونة التي كانت تصلهم من الفرات وواسط والبطائح منعتها سفن الخليفة من الوصول الى بغداد ، ولذلك اضطرت الى ان تتجه الى نهر عيسى والى الفرات وتؤخذ فوق بغداد في الصراة ، الامر الذي ادى الى احراج الوضع الاقتصادي للسلاجقة .

---

(١٤٥) ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، ٢٢٩ .

اضطر السلطان محمد السلجوقي الى الاسلوب الدبلوماسي للتخفيف من وقع الهزيمة المنكرة فاستغل وجود بعض العلماء في جيشه امثال صدر الدين محمد بن عبداللطيف الخجندي وشمس الدين احمد شاه القزويني الا انهما لم يتمكنا من الوصول الى الخليفة (١٤٦) ، وكان زين الدين صاحب الموصل يقيم في الجانب الغربي من بغداد (١٤٧) ، وفي الوقت نفسه بدأ الخليفة يراسل زين الدين صاحب الموصل ويستميله الى ان تغيرت نيته في القتال (١٤٨) ، ويرى ابن الاثير ان زين الدين وعسكر الموصل كانوا غير مجدين في القتال « لاجل الخليفة والمسلمين » وفي رواية ان نورالدين محمود بن زنكي ، وهو اخو قطبالدين صاحب الموصل ، ارسل الى زين الدين يلومه على قتال الخليفة « ففتر وأقصر »(١٤٩) ، وفي رواية أن نورالدين بن زنكي بعث الى علي كوجك وقال له « تمضي وترمي نفسك بين يدي امير المؤمنين حتى يرضى »(١٥٠) . ولذا فان الوقت كان يجري في صالح الخلافة حيث كانت الفرص مهيأة

---

(١٤٦) البنداري ، المصدر السابق ، ٢٣٠ .
(١٤٧) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٢١٣/١١ .
(١٤٨) ابن الاثير ، التاريخ الباهر (القاهرة ، ١٩٦٣) ١١٤ .
(١٤٩) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ٢١٤/١١ .
(١٥٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٧١/١٠ .

الخدمة الخليفة المقتفي في نضاله مع السلاجقة ، أضف الى ذلك انه كان هناك خلاف بين كردبازو وابناء قايماز ، وكان الشجار قائما بينهما ، فكان هذا سبباً في التهاون في الحرب ، وساءت الاحوال في المدينة وامتنع الناس عن دفع الاموال السلطانية «ولم يعد من المتيسر حمل واحد من المتاع في المدينة » (١٥١) ، ولقد أثرت سياسة الخليفة في اثارة الامراء السلاجقة ضد السلطان محمد السلجوقي من جانب ، وفي استمالة صاحب الموصل الى جانبه من جانب آخر ، حيث امتنع سكان الموصل من ارسال سفن الامدادات في نهر دجلة الى عسكر السلطان محمد ، لذلك عاد زين الدين الى الموصل وسحب قواته (١٥٢) ، ومنع الخليفة عسكره من أن يلحقوه (١٥٣) ، كما ان الاخبار من المشرق افزعت محمدا السلجوقي ، حيث افادت تلك الاخبار بان اخاه ملكشاه وايلدكز صاحب بلاد آران ومعه الملك ارسلان بن الملك طغرل بن محمد ، وهو ابن امرأة ايلدكز قد دخلوا همدان واستولوا عليها ، واخذوا أهل الامراء الذين مع محمد شاه واموالهم ، فلما سمع

---

(١٥١) الراوندي ، راحة الصدور ، ٣٨٣-٣٨٤ .

(١٥٢) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢١٥ .

(١٥٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/١٧٥ .

محمد شاه بذلك جد في القتال لعله يبلغ غرضا»(١٥٤) ، ثم وصل خبر من همدان يفيد ان ملكشاه اخذ اربعة الاف بختية نفذ بها محمد شاه الى همدان ، واخبروه بهزيمة ايتاغ وباموال كثيرة اخذت من همدان، ووصل كتاب الى الامراء الذين مع محمد شاه يقول لهم «متى تأخرتم عن الحضور الى عشرين يوما خربنا بيوتكم واخذنا اموالكم واولادكم ونساءكم » (١٥٥) ، فشاور الامراء بما انتهى اليه من ذلك ، فكلهم اشاروا بالرحيل عن بغداد الى همدان ثم يعاودون الرجوع اليها فيما بعد (١٥٦) ، ثم جاء الخبر لمحمد شاه بان همدان اخذها بعض بني عمه ونهبت داره فرحل في حال يرثى لها سنة ٥٥٢ هـ ، ولذلك انتهى حصار السلاجقة لبغداد بالفشل الذريع ، وانسحبت قواتهم في الرابع والعشرين من ربيع الاول سنة ٥٥٢ هـ بعد ان حاصروها في ذي الحجة سنة ٥٥١ هـ(١٥٧) .

وحينما انسحب السلاجقة ، نهبوا مدينة بعقوبة وغيرها من طريق خراسان ، وعلى اثر ذلك هجمت

---

(١٥٤) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢١٤ـ٢١٥ .
(١٥٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/١٧٣ـ١٧٤ .
(١٥٦) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ١٤٠ .
(١٥٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٠/١٧٥ .

قوات الخلافة على دار السلطان السلجوقي واخذوا ما كان فيها من اموال وابواب واخشاب كما ان السلاجقة عجزوا عن حمل اثقالهم التي ادخلوها الى بغداد وغنمها سكان بغداد ٠

ثم جمع الخليفة الامراء والقادة فخلع عليهم الاموال وقال « تمضون الى همدان لتكونوا مع ملك شاه ضد محمد شاه وكوجك »(١٥٨) ، وذلك من اجل ان يقضي على محمد السلجوقي ، وعلى نفوذ السلاجقة في المشرق ، وكان محمد شاه في طريق رجوعه قد بعث الى كوجك يقول له : « أنت وعدتني باخذ بغداد ، فبغداد ما حصلت وخرجت من يدي همدان واخذوا مالي بها ، وخربت بيوت اصحابي وانا معوّل على المضي فقال له : « متى رحلت بغير بلوغ غرض كنت سبب قلع بيت السلجوقية الى يوم القيامة ، ثم لا يقصدونك بل يقصدوننا ايضا ٠٠» ، وكان السلاجقة حينما قرروا مهاجمة بغداد ، على ثقة كبيرة بانفسهم من اجل تحقيق انتصارهم على جيش الخلافة ، وحينما انتهت الاوضاع الى الهزيمة انذهلوا ولم يعرفوا كيف يتصرفون فقد تهيأت لهم ظروف قوية ، الا ان صمود جيش الخلافة وسكان بغداد حطم معنوياتهم وبدد آمالهم وسأل بعض امراء

---

(١٥٨) نفسه ، ١٠/١٧٥ ، الحسيني ، المصدر السابق ، ١٤٠٠

محمد شاه عن سبب الهزيمة فقال : « والله ما كان الا امرا ربانيا احاط بنا الخذلان »(١٥٩) . ويعلق الحسيني على انتصار المقتفي واندحار السلاجقة بقوله : « وانقطعت بعد ذلك أطماع السلاطين السلجوقية عن بغداد ...» (١٦٠) . ويعلق الراوندي على الانتصار العباسي بقوله : « واصبحت بغداد وقد اتاها الله بالفرج .. ونصر الحق وحق النصر ، وكف المقتفي عن انتقاء المنكفين . وانتشرت عساكر امير المؤمنين في البلاد ... وعرفت الاعاجم أنه لا مطمع بعدها في بغداد .. »(١٦١) ، واقيمت احتفالات النصر في بغداد والتي شارك فيها مختلف سكانها ، ويصف الراوندي الحالة وكان شاهدا لها يقول :« وكنت حينئذ ببغداد ، وجرت قصائد في هناء الامام واستخدمني الوزير عون الدين تلك السنة في النيابة عنه بواسط فنقلني من المدرسة الى العمل ... »(١٦٢) قال ابن الجوزي : «وخرج الناس يلعبون في نهر عيسى وغيره بانواع اللعب والمضحكات فرحا بالسلامة واحتفل الصبيان الذين كانوا يقاتلون وخرج الناس يتفرجون ويضحكون

---

(١٥٩) ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، ٢٢٩ـ٢٣٠ .
(١٦٠) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ١٤٠ .
(١٦١) البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢٣٣ .
(١٦٢) البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢٣٣ .

عليها »(١٦٣) . وفي يوم الخميس ١٤/جمادى الاول ، ركب الخليفة في الماء وسار يتفقد السور من اوله الى آخره، وعاد من دجلة يتفقده ثم عبر الى الجانب الغربي فنظر آثار الخراب وما احرق من الدور ثم عاد الى منزله مسرورا واطلق للفقراء مالا كثيرا »(١٦٤) ، وكان للحصار اثره الشديد على سكان بغداد من جوانب كثيرة ، ففي اعقاب انسحاب السلاجقة من بغداد اصاب اهلها امراض شديدة وحادة « وموت كثير للشدة التي مرت بهم » . ولذا يعد انسحاب السلاجقة من بغداد أفظع هزيمة الحقت بهم على أيدي العباسيين طوال التاريخ العباسي ، وتخلصت بغداد من جورهم ومن تسلطهم ، وصفت الامور للخليفة المقتفي الذي توج نضاله للسلاجقة بالنصر المؤزر . وتم تحرير بغداد من بقايا السلاجقة الذين كانوا فيها ، كما ان الاحداث كشفت عن مدى النجاح الباهر لسياسة الخليفة المقتفي ، في جمع شمل وتوحيد العراقيين عامة واهل بغداد بخاصة والذين اظهروا براعة وشجاعة نادرة ، ونجاح سياسته في تشتيت شمل السلاجقة ، وزرع بذور الخلاف

---

(١٦٣) المنتظم ، ١٠/١٧٥ .
(١٦٤) نفسه ، ١٧٥ـ١٧٦ .
(١٦٥) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١١/٢١٥ .

والشقاق بينهم وهذا النجاح شجع الخليفة على مواصلة نضاله ضد السلاجقة حتى خارج العراق بل وفي عقر دارهم في المشرق ، وبعد فشل السلاجقة حاولوا التشبث بأية وسيلة الى ارهاق واضعاف حكم المقتفي ، ولذلك فانهم لجأوا في سنة ٥٣٣هـ الى كثرة الافساد في منطقة الجبل بقيادة برجم الايوائي ، فجهز الخليفة المقتفي جيشا كبيرا بقيادة منكبرس المسترشدي، فلما قاربهم اقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم السلاجقة « اقبح هزيمة وقتل بعضهم واسر بعض وحملت الرؤوس والاسرى الى بغداد » (١٦٦) ، وبهذه الانتصارات المتلاحقة اصبحت قوة الخلافة رهيبة بحيث ليس في مقدور السلاجقة الوقوف بوجهها .

وكان الخليفة المقتفي قد اقطع قلعة الماهكي ، و بلد اللحف الى الامير قايماز العميدي ، وكانت هذه سابقا الى سنقر الهمداني ، الا ان موقف سنقر السلبي من الخلافة ادى الى ان يمنح الخليفة الاقطاع الى الامير قايماز ، فعاد سنقر ومعه قوة من الفرسان فراسل قايماز العميدي قائلا له : « ارحل عن بلدي ... » فامتنع قايماز وجرى بينهم قتال شديد انتهى فيه العميدي الى بغداد (١٦٧) ، ويعد هذا

---

(١٦٦) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٢٣٩/١١ .
(١٦٧) نفسه ، ٢٤٩/١١ .

العمل ضد الخليفة المقتفي الذي نظر الى الموضوع باهمية بالغة لانه خشي ان يتشجع السلاجقة على مهاجمة الخلافة مستقبلا ، فجهز جيشا كبيرا في عام ٥٥٤هـ لتأديب سنقر الهمداني ومن معه فوصل الى النعمانية مودعا الجيش الذي اسند قيادته الى شرشك ثم عاد الى بغداد ، فلاذ سنقر الهمداني بالجبال هاربا ، ونهب شرشك ما وجد له ولعسكره من اسلحة ومال السلاجقة وغير ذلك ، وأسر وزير سنقر الهمداني وقتل عدد كبير من اصحابه ، ثم ضرب الحصار حول قلعة الماهكي عدة أيام ثم عاد الى البندنيجين وارسل الى الخليفة بالبشارة والنصر(١٦٨) ٠

واستنجد سنقر بملكشاه ، فأنجده بخمسمائة فارس وعاد الى القلعة فافسد فيها وارسل شرشك الى بغداد يطلب النجدة فبعث اليه الخليفة نجدة عسكرية وكان شرشك حذرا جدا من خصمه سنقر الذي لجأ الى الخداع والحيلة ، حينما ارسل الى شرشك رسولا طالبا اليه ان يتوسط في اصلاح حاله مع الخليفة ، غير ان شرشك سجن الرسول ، ثم هاجم القلعة ليلا وقتل عددا كبيرا من اتباع سنقر وحصل على غنائم

---

(١٦٨) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٢٤٩/١١ ٠

كثيرة جدا من الاموال والدواب وكل ما لهم وهرب سنقر جريحا من مطاردة القوات العباسية له .

ومن جراء فشل السلاجقة في التأثيـــر علـى سياسة المقتفي لامر الله فانهم ارادوا ان يستخدموا الحيلة والخداع معه ، فاطلقوا سراح سليمان شاه الذي كان مسجونا بالموصل ، ذلك لوفاة السلطان محمد بن محمود بهمذان في سنة ٥٤٤ هـ ، وقـــرر السلاجقة تولية سليمان شاه بن محمد محله ، على اعتبار انه كان له علاقة طيبة بالخلافة ، وانهم ارادوا ان يعودوا من خلاله الى بغداد ، ولذلك اطلق سراحه وعين سلطانا على السلاجقة ، ويقـــول القلقشندي « انه كان فيه خرق وتهور وضعف في الدين حتى يقال انه شرب الخمر في رمضان نهارا ، فتسلط عليه الجند حتى لم يبق له معهم امر ، ثم قبض عليه وحبس ، واقيم ارسلان شاه بن طغل بن محمد بن ملكشاه في السلطنة » (١٦٩) » ، وبعـــد ان حقـق السلاجقة هذا الاسلوب على اساس انهم رضـــوا مسبقا بسليمان الذي رضي به الخليفة المقتفي في محاولة لاسترضائه ، عـــزلوه ، وارادوا من الخليفة ان يعترف بسلطنة ارسلان شاه وبعثوا الى بغـداد

---

(١٦٩) القلقشندي ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ج٢/٣٨ .
(١٧٠) نفسه ، ٢/٣٨ .

طالبين الخطبة فيها بالسلطنة علـى عـادة الملـوك السلجوقية فلم يجبهم الى ذلك ، وبقيت الخطبة في بغداد للخليفة وحده ، وبقي الامر على ذلك الى وفاة المقتفي (١٧٠) ، وبهذا الحادث يكون المقتفي قد ازاح عن العراق ستار الظلم الذي ظل يرزح تحت وطأته ردحاً من الزمن .

جريدة المصادر والمراجع

اولا : المصادر المطبوعة :

ابن الاثيـر :

عزالدين أبو الحسن علي بن محمـد الجـزري (ت ، ٦٣٠) : الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٥) ٠

الاربلـي :

سنبط قنديتو عبدالرحمن (ت ، ٧١٧هـ : خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك (بيروت ، ١٨٨٥) ٠

البنداري :

الفتح بن علي بـن محمـد (ت ، ٦٤٣هـ) : تاريخ دول ال سلجوق (بيروت ، ١٩٧٨) ٠

ابن الجـوزي :

ابو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ، ٥٩٧هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آبـاد ،

١٣٥٧ ـ ١٣٥٩هـ) . أهل الأثر في عيسون التواريخ والسير (القاهرة ، ١٩٧٥) .

ابن الجزري :

شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت ، ٨٣٣هـ) : غاية النهاية في طبقات القراء ، تحقيق براجستراسر القاهرة ، ١٩٣٢) .

الحموي :

ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي (ت، ٦٢٦هـ) : معجم البلدان (بيروت ، ١٩٦٥) .

ابن خلدون :

عبدالرحمن بن محمد (ت ، ٨٠٨هـ) : العبر في ديوان المبتدأ والخبر (بيروت ، ١٩٥٧) .

ابن خلكان :

ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت ، ٦٨١هـ) : وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (القاهرة ، ١٩٤٨ ، ١٩٤٩) .

ابن دحية الكلبي :

ابو الخطاب عمر (ت ، ٦٣٣هـ) : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، تحقيق المرحوم الاستاذ عباس العزاوي المحامي (بغداد ، ١٩٤٦) .

ابـن دقماق :

ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت ، ٨٠٩هـ) : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق سعيد عبدالفتاح (القاهرة ، ١٩٨٢) ٠

الدياربكري :

حسين بن محمد بن الحسن (ت ، ٩٦٦هـ) : تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس (القاهرة ، ١٢٨٣هـ) ٠

الذهبي :

شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد عثمان (ت ، ٧٤٨هـ) : دول الاسلام (القاهرة ، ١٩٧٤) ٠

العبر في خبر من غبر (الكويت ، ١٩٦٣) سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارنورط ومحمد نعيم (بيروت ، ١٩٨٥) ٠

الراوندي :

محمد بن علي بن سليمان (ت ، ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م) : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة د ٠ فؤاد الصياد وآخرين (القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م) ٠

السيوطي :

جلال الدين عبدالرحمن ابي بكر (ت ، ٩١١هـ) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة ، ١٩٥٩) ٠

ابن الطقطقي :

محمد بن علي بن طباطبا (ت ، ٧٠٩هـ) : الفخري في الاداب السلطانية (بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ٠

ابن عبدالحق البغدادي :

عبدالمؤمن البغدادي الحنبلي (ت ، ٧٣٩هـ) : مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد الحاوي (بيروت ، ١٩٥٤) ٠

ابن العماد الحنبلي :

ابو الفلاح عبدالحي (ت ، ١٠٨٩هـ) : شذرات الذهب في اخبار من ذهب (القاهرة ١٣٥٠هـ) ٠

ابن العمراني :

محمد بن علي بن محمد (ت ، ٥٨٠هـ) : الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق د ٠ قاسم السامرائي (دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ٠

القلقشندي :

ابو العباس أحمد (ت ، ٨٢١هـ) : مآثر الانافة في معالم الخلافة (الكويت ، ١٩٦٤) ٠

القزويني :

زكريا بن محمد بن محمد (ت ، ٦٨٢هـ) : آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت ، ١٩٦٠)٠

الفارقي :

احمد بن يوسف بن علي الازرق (ت ، ٥٧٧هـ/١١٨١م) : نبذة من تاريخه من كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٠

ابو الفداء :

الملك المؤيد اسماعيل بن علي (ت ، ٧٣٢هـ) : المختصر في اخبار البشر (القاهرة ، ١٣٢٥هـ)

ابن الكازروني :

علي بن محمد البغدادي (ت ، ٦٩٧هـ) : مختصر التاريخ من اول الزمان الى منتهى دولة بني العباس ، تحقيق د ٠ مصطفى جواد (بغداد ، ١٩٧٠)٠

ابن كثير :

عمادالدين اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ، ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٦) ٠

المقريزي :

تقي الدين احمد بن علي (ت ، ٨٤٥هـ): السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق د • محمد مصطفى زيادة (القاهرة ، ١٩٣٤) •

المكسي :

عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي (ت ، ١١١١هـ) سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي (المطبعة السلفية) •

ابن منظور :

محمد بن مكرم (ت ، ٧١١هـ) : لسان العرب (بولاق ، ١٣٠٠ ـ ٣٠٨هـ) •

اليافعي :

ابو محمد عبدالله بن اسعد (ت ، ٧٦٨هـ) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعبر من حوادث الزمان (حيدر آباد ، ١٣٣٧ ـ ١٣٣٩هـ) •

ابن الوردي :

عمر بن المظفر (ت ، ٧٤٩هـ) : تتمة المختصر في أخبار البشر (النجف ، ١٩٦٩) •

ثانيا ـ المراجع العربية الحديثة :

أمين ، حسين :

تاريخ العراق في العهد السلجوقي (بغداد ، ١٩٦٥) •

مقالة في مجلة سومر ــ بغداد ، ١٩٦٤ ·

الجميلي رشيد :

امارة الموصل في العصر السلجوقي (بغداد ، ١٩٨٠) ·

حسن ، علي ابراهيم :

التاريخ الاسلامي العام (القاهرة ، ١٩٥٩) ·

حسين ، عبدالمنعم :

سلاجقة ايران والعراق (القاهرة ، ١٩٥٩) ·

الخضري ، محمد :

محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية (القاهرة ، ١٣٨٢ هـ) ·

الدويهي ، اسطيفانيوس :

تاريخ الازمنة (بيروت ، ١٩٥١) ·

زادة ، نظمي :

كلشن خلفا (النجف ، ١٩٧١) ·

الزهراني ، محمد بن جعفر :

نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية (بيروت ، ١٩٨٢) ·

علي ، امير :

مختصر تاريخ العرب (القاهرة ، ١٩٣٨) ·

فوزي ، فاروق عمر :

الخلافة العباسية في فترة الفوضى العسكرية (بغداد ، ١٩٨٦) ·

فهرســت الكتاب

طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية ـــ